البحر الأخير

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: البحر الأخير

اسم المؤلف: هند مسعد

التدقيق اللغوي: محمود البكري

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٥٢٢٤ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٧٢-٨-١

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب – قسم يوسف بيك – الزقازيق – الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

البحر الأخير

هند مسعد

مسار
للنشر و التوزيع
Masaar publishing & Distribution

إهداء

إلى مرضى اضطراب الكابوس [Nightmare Disorder]، وكافة الاضطرابات النفسية، لأرواحكم ونفوسكم السلام الذي تستحقه.

الفصل الأول

"ظلامٌ سائل"

أريد أن أقول شيئًا ما، لكن لا أعرف كيف أقوله، أو من أين أبدأ.

كان الليل والنهار يلتهمان ما تبقى لها من وقت. وقد وجدت علا نفسها في بيتٍ مهجورٍ مجاور لهم؛ لكنه لم يكن مهجورًا كما هي الحال في الواقع. كان فارهًا ومسكونًا وفيه حفلٌ ما يُقام. نسوة بفساتين منمقة ورجال بأردية طويلة تصل للقدمين. وقد ظلت تمعن النظر فيهم بتعجبٍ واستغرابٍ حتى توجهت نحوها إحدى الموجودات وهي تقول: لماذا تحدقين فينا هكذا؟

فقالت: أنا فقط أمعن النظر في المكان. أعلم أن هذا مجرد حلم. وأنكم جميعًا محض خيال نبت في رأسي.

"محض خيال؟" قالت الفتاة؛ ثم أردفت وهي تقهقه: أتمزحين؟!

فردت علا: "لا، أنا الآن أحلم وأنتم لا وجود لكم في الحقيقة وسأستيقظ بعد قليل."

أجابتها الفتاة وصوتها لا يزال يحمل من الضحك بعض الصدى: "نحن نعيش هنا منذ زمنٌ طويل. تعالي! اليوم خطبتي... سأعرفك على الحضور."

مضت معها وسط الحاضرين ثم تباطئت بجوار عدد منهم وهي تقول: "تخيلوا أن هذه الفتاة تقول أننا غير حقيقيين ولا وجود لنا."

التفت آنذاك شاب وسألها: "إن كنا غير حقيقيين فمَن نحن إذن؟"

قالت: "هذا محض حلم جلي. أنا الآن نائمة، سأستيقظ بعد قليل. هذه كلها أعراض اضطراب كوابيس مزمن وأحلام جلية."

مال الشاب برأسه للأمام مستفسرًا: "عفوًا؟! ما هذا؟"

أجابته: "إنه نوع من اضطرابات النوم هذا غير الأحلام الجليّة."

أردفت الفتاة الأولى تقول: "لا أفهم شيئًا."

استطردت تقول: "يمكنكم البحث على الانترنت وستجدون شروح مستفيضة حول الأمر. إن الخلل....."

قاطعها الفتى بنبرة ضيق وتعجب قائلا: "ما هو الإنترنت؟"

أجابته: "ألا تعرفون الانترنت؟ إنه مثل التلفزيون والراديو والـــ..."

قاطعها مرة أخرى وهو يقول: "ماهو التلفزيون والراديو؟ أنتِ غريبة جدًا. تأتين إلى هنا وتقولين أننا غير حقيقيين ثم تتحدثين عن أشياء غير موجودة ولا نفهم حتى معناها؟!"

شقَّ صوت رجل المكان وقتذاك مُعلنًا تمام عدد الركاب. فاستيقظت من غفوتها على وقعه. ورأت سائق السيارة يدلف داخلها ثم أدار المحرك وأنطلق.

كان يومًا ربيعيًا عاديًا في محطة الحافلات. وكانت هي قد احتلت المقعدين الأماميين في سيارة أجرة متجهة إلى الإسكندرية حيث غفت لفترة قصيرة من الوقت. الشمس تمضي بكسل نحو الغروب والهواء يداعب خديها المكتنزين ويلوّح بطرف حجابها يمينًا ويسارًا. تُعانق عيناها الأراضي الخضراء وتستمتع بألوان المحاصيل والزهور التي تطل من المشاتل بين الفنية والأخرى. يكدر صفوها إحساسٌ بالسخط على الحياة التي عاشتها في المدينة. تكالبت عليها نوبات الربو عامًا بعد عام بسبب تلوث الهواء. الحال لم يكن دومًا هكذا. كانت طهم مدينة رهيفة فيما مضى، قبل أن يكسوها الزمان برداء الوساخة والوخامة الذي تحسبه علا قد كسى كل شيء، بما في ذلك قلوب الناس بل وحتى قلبها ذاته. فطنت الفتاة منذ زمن بعيد أن قلبها اعتراه ما اعترى المدينة كلها. وأنها لا تختلف كثيرًا عن ذاك الذي تمتعض منه.

- آآآخ.."

- معلش يا مدام، مشفتش المطب.

نظرت للسائق وهي تتحسس رأسها بعد أن ارتطم فجأة بصفيح الباب ثم عادت بوجهها نحو النافذة. باتت تسمع كلمة مدام بشكل متكرر منذ أن بلغت الثامنة والعشرين تقريبًا. هي نفسها ملّت من تصحيح اللقب. فباتت تترك مَن شاء يُناديها بما شاء. سبب الأمر لها

بعض الضيق في البداية، لكن اعتادت عليه كما اعتادت على الكثير من الأمور السيئة.

"اليوم تتمين عامك الثلاثين." تُحدّث نفسها. "جميل إنك ستقضيه في أحضان البحر. ألا يبدو البحر لكِ كأب سيتلقفك بلهفة عنـ.."

"الأجرة يا بهوات..."

فتحت حقيبة يدها وبحثت عن المحفظة ومن ثم فتحت جيب في المحفظة ودفعت للسائق أجرة مقعدين. ثم أغلقت السحاب ثم عادت ووضعت المحفظة في حقيبتها وأغلقت الحقيبة. وشعرت وقتذاك أن عملية دفع الأجرة كانت مُجهِدة وطويلة وشاقة.

اختلجها شعورٌ بالأسى وهي تفكر في تايكة وخديجة وما سيحدث لهن عندما يعرفن وتمنت أن يسامحها الجميع وأولهم الله. أملت تلك الشابة بصدق أن يُشفق عليها خالقها. مَن يعلم! قد يعفو عنها شفاعة لعلا التي كانت موجودة فيما مضى. كثيرون سكنوا هذا الجسد. كانت كل واحدة منهن لها شخصيتها التي تختلف عن الأخريات. لم تكن تعرف متى تبدأ أو تنتهي كل تلك الشخصيات. وأنَّى لنفس بشرية واحدة في جسد ضعيف كهذا أن يكون لها كل تلك الوجوه المختلفة لدرجة

التناقض أحيانًا. صحيح أن كل واحدة منهن تشترك مع الأخريات في شيءٍ ما. إلا أن أكثر ما اشتركن فيه جميعهن كان خيبات الأمل. امتلأت مقلتها بالدموع وهي تتذكر أول يوم لها في الثانوية حيث شعرت أنها مرحلة جديدة ينظر فيها الناس للبنت كآنسة لا كطفلة في الإعدادية. وقد أعجبها الأمر. فنهديها المتكورين البارزين وشعرها البني المنسدل في ذيل حصان يصل لنهاية ظهرها، كانا يعلنان أن الطفلة ذهبت، وها هي الآنسة البالغة في جسد مفعم بالأنوثة.

في ذاك اليوم كان موظف شئون الطلاب يُنادي في طابور الصباح: "علا سالم فصل أولى تالت". هرولت ناحية الدرج ومضت تبحث عن الفصل وجلست بجانب فتاتان إحداهما كانت تحمل نفس الاسم والأخرى علياء. في اللحظة التي جلست فيها شعرت أنها حجزت لنفسها مقعد في صفوف الآنسات وليس مجرد مقعد في الفصل. ولو أن شخص ما أخبرها حينذاك أنها ستتم الثلاثين ربيعًا وهي عازفة عن الزواج لصعقت. ما كانت علا تدري أن ذاك العام، ٢٠٠٥، سيكون جُرح بالغ في الذاكرة لا يلتئم مهما مر عليه الزمن. وأن الحياة ستحملها إلى لحظات من اليأس والكرب ترجو فيها الله رجاءًا صادقًا أن تموت. بدأت مأساة تلك الشابة قبل زمنٍ طويل - منذ ولادتها - بل وربما حتى قبل ذلك. هي ذاتها حدست أنٍ مأساتها بدأت بقرار والديها الكارثي

بالزواج. وقد كان إحساسها دائمًا تجاه تلك الأسرة الصغيرة المكونة من الأبوين والأخ إحساسًا تعسًا. ولطالما شعرت إنها بلا أهل على الإطلاق خاصة بعد وفاة زوجة أبيها. المرأة التي كانت بمثابة أمها الحقيقية والوحيدة. عاش والدها نفسه مكتئبًا وغير مبالي بأي شيء بعد وفاتها. كانت أمها البيولوجية، التي تُدعى شادية، بالنسبة لها محض نسخة دميمة ومشوّهه عن الأمومة. تُميز الذكر على الأنثى في كل شيء حتى في حصتهم من العنف والضرب. ومع ذلك، ظل وجود والدها الباهت يُشكّل لها بعض الحماية لكن ما أن توفي على إثر حمى شديدة وهي في الثانية عشر من عمرها حتى كشرت الحياة عن أنيابها الضارية.

غامرت شادية بكل ما تبقى للأسرة من مال في مشروع مع زوج أختها في نفس العام. وما هي إلا شهور قليلة حتى خسروا كل شيء وأضحوا مفلسين تمامًا. كانت علا لا تجد إحسانًا من والدتها والأسرة ميسورة الحال. فبات فقرهم وجوعهم مروعًا لها فوق روعها هي من فقرها وجوعها. فتك الجوع بها لشهور ولم تكن تجد بضع لقيمات تسد بها رمقها؛ أما وائل، فكان لا يلبث أن يسب أمه ويطيح تكسيرًا في البيت كلما جاع ولم يجد ما يأكل أو يشرب. دفعت علا ثمن تربية شادية أكثر من شادية نفسها. فقد اضطروها مرارًا وتكرارًا لطرق أبواب القريب والغريب من أجل بضع جنيهات يأخذها وائل ليشتري طعام وسجائر.

حتى إنها في مرة من المرات طرقت باب جارة لهم لتستدين منها خمس جنيهات وتعود بها لأمها التي تنزف دمًا من كاحلها بعد أن ضربها وائل لأنه يريد طعام بأي شكل.

آنذاك حين فتحت الجارة الباب ووجدت علا، تقف أمامها تسألها بضع جنيهات بعينين ذليلتين، قالت لها: "يا ختي أنتو مش لاقيين غيري تشحتوا منه — معدتيش تيجي وقولي لأمك تجيب الخمسين جنية اللي عليها." وصفقت الباب في وجهها. مضت يومذاك وهي تشعر أن وجهها يكاد يهوى أرضًا من وقع الإهانة. كان شعورًا رهيبًا.

كانت تعرف إنها لا تستطيع أن تعود لأمها دون الخمس جنيهات وأن الجرح الذي ينزف في كاحلها قد يصير جرحين أو ثلاثة. مشت تبكي بين المارة ولا تعرف باب مَن تطرق أو لَمن تذهب. فكرت أن تذهب للمسجد حيث ستجد والد صديقتها المقربة خديجة. ظنت أنها إن أخبرته أنها تحتاج لبضع جنيهات لأمر طارئ قد يقرضها المبلغ — لكن للأسف — ما إن أبصرته يخرج من المسجد حتى وقفت تتطلع إليه وهي خجلة كليًا عن التقدم نحوه لطلب المال. طرقت بعد ذلك باب بيته وطلبت من الأم لقاء خديجة نفسها التي فهمت الأمر بمجرد أن رأتها. تتشارك الرفيقتان نفس السن ونفس الطباع ونفس العام الدراسي وحتى نفس الحي. كانت خديجة تدخر من مصروفها الكثير لشراء

روايات الجيب. وفي هذا اليوم كانت لحسن الحظ تمتلك أربع جنيهات أعطتهم لعلا بمجرد أن رأتها ودون أن تطلب حتى هي ذلك. ركضت الفتاة نحو منزلها وهي تقبض على المال. كان وائل ممسكًا بتلابيب أمه وما إن رآها حتى انتزع من يدها الجنيهات وسب أمه من أجل الجنية الناقص وخرج.

يظهر حجم الخسائر حين تنتهي العاصفة. حطّم وائل معظم الأثاث ومصابيح الإنارة والشبابيك على مر السنين. صار المنزل كئيبًا وموحشًا. مضت علا تبحث ولو عن خرقة بالية تضمد بها جرح الوالدة التي تبكي من هول الألم والنزيف. ربطت كاحل شادية وطمأنتها أنها إصابة بسيطة ستتعافى منها خلال يومين على الأرجح. مع أن الفتاة كانت لا تدري ولا حجم الإصابة ولا الفترة التي تحتاجها الوالدة للتعافي. ومرت دقائق معدودة ثم عاد الفتى وجلس يأكل بنهم دون أن يرف له جفن أو يأن له ضمير بأن أخته وأمه لم يتناولن شيء منذ مطلع النهار. وأنهن سيبتن جائعات ينتظرن غد لا أمل فيه. كرهت علا شادية مرتين. مرة لأنها قست عليها وكسرتها من الداخل؛ وأخرى لأنها هي من ربت وائل الذي لطالما رأته قذرًا وأنانيًا لدرجة أنها كانت تأنف من اعتباره أخوها. احتقرت أيضًا تلك الوالدة التي أطعمت الوحش فيه عندما ميّزته في المعاملة عنها. كم آذاها ما كانت تفعله أحيانًا في بداية العام

الدراسي. إذ تشتري حقيبة جديدة للفتى إذا تعسرت الأمور المالية فيما تأخذ الفتاة حقيبته القديمة.

تدهور مستواها الدراسي وكانت بالكاد تستوعب ما يقال لها في المدرسة وتركت معظم دروسها. كانت أفقر من أن تأكل أو تشرب فأنَّى لها أن تدفع مقابل الدروس الخصوصية. ومع ذلك لم يكن كل هذا مهماً بالنسبة لها. كان الحصول على بعض لقيمات تسد بها جوعها كل يوم هو أهم شيء في هذه الحياة. فقدت الكثير من وزنها وباتت تعاني من الدوار على وهي تنتظر الوجبة الغذائية التي توزعها المدرسة على الطالبات. كرهت علا العطلات لأن لا أمل لها في الحصول على طعام. تُمني نفسها بأنه لابد سيأتي أي طعام من أي مكان. قد تستدين والدتها بعض المال وتحضر أي طعام للبيت. تشرد بخيالها في وجبة المدرسة وتتخيل لف رغيف الخبز وأكله قضمة وراء قضمة وتستحضر شعور ذهاب الجوع المؤقت وتركز عليه لتقنع نفسها إنها ليست جائعة إلى حد التضور. مرت الشهور في ذاك العام وهي تذبل يوما تلو الآخر حتى صار جسدها نحيلا وظهرت تجاويف عينيها وباتت بشرتها بالية وكل هذا لم يشغل لها بالا. وحده الجوع وسد الرمق كانا كل ما تسعى إليه. انتهت السنة الأولى من الثانوية وهي برصيد دراسي سيء وجسد ضعيف وقلب تنهشه الأحزان لكن جاء الفرج أخيرًا.

حصلت شادية على عمل بسيط في أحد المستشفيات القريبة من المنزل. وفرحت علا أيما فرح. ظنت أنهم أخيرًا سيسددون الديون التي لا يكف بسببها الديانة عن طرق الباب. وسيشترون الطعام بشكل شبه يومي. ومن يدري، ربما استطاعوا أكل اللحوم مرتين أو ثلاث في الشهر. لكن تذكرت أن المرتب ضعيف؛ وأن وائل سيقتطع منه الجزء الأكبر لا محالة، فعدلت عن تخيل اللحوم مرتين في الشهر واكتفت بأنها ستأكل كل يوم مرتين أو ثلاث ولو أرز أو خبز وسلطة وبدى هذا الطعام آنذاك شهيًا سائغًا للغاية.

سالت من مقلتيها دمعة وهي تتذكر أيام القحط والجوع الشديدين. إن المرء لا يخرج من بين أنياب الفقر معافى أبدًا. تظل تنهشه الذكرى من آن لآخر مهما عاش رغد العيش فيما بعد. كانت تذرف الدموع وحيدة بدون صوت كل ليلة حتى تنتفخ عينيها. وفي صباح اليوم التالي عندما تسألها زميلاتها في المدرسة أو الجامعة عن سبب انتفاخ عينيها تسيل منها الدموع رغمًا عنها. لم تكن تعرف ماذا تقول! يستبد بها الحرج عندما تتخيل، مجرد تخيل، إنها تحكي لزميلاتها عن الفقر المدقع الذي تعانيه بسبب شادية وابنها. أو كيف أن بارقة الأمل التي تشبثت بها حين عرفت أن شادية وجدت عملا في إحدى المستشفيات استحالت سرابًا على يد وائل. كان مرتب شادية كاملا يذهب لما يرغب فيه وائل من

طعام وملابس شاءت أمه أم أبت. كان عديم الرحمة تجاه أمه نفسها قبل أن يكون تجاه أخته. يأخذ معظم راتب شادية ويضطرها عادة للاستدانة ليشتري ما لذ وطاب من الطعام والثياب. وعلى هذا الحال عاشت علا ما تبقى لها في الثانوية وحتى سنوات الجامعة وهي بالكاد تأكل وتشرب وتلبس ثيابًا رثة بالية تأخذها كصدقة من إحدى الجمعيات الخيرية. مع ذلك، كانت تعتبر أن مجرد وجود طعام أين كان شكله أو طعمه وثياب أين كان مظهره لهو وافر النعم من الله. باتت تعي قيمة كل لقمة تنزل جوفها وكل قطعة قماش تستر بها جسدها. فهي تأكل بشكل منتظم كل يوم ولو بضع لقيمات وتخرج للجامعة طوال اليوم حيث لا وجود لشادية ووائل. فصارت الجامعة في نظرها أفضل من الثانوية من حيث مقدار العذاب. إلا أنها كانت تنخرط في البكاء من وقت لآخر – حتى سألتها إحدى زميلاتها ذات مرة: "لماذا تبكين كثيرًا"! فابتسمت ابتسامة مذبوحة وقالت: "البحر يرشحُ من عيني."

توقفت السيارة أمام إحدى محطات الوقود على الطريق وترجل المسافرون واحدًا تلو الآخر. تأملت آلة القهوة خلف الزجاج وبدا لون القهوة وهي تقطر في الكوب خلابًا. دخلت واشترت لنفسها كوبًا. السيارات تُقأقأ. يتجاذب الناس أطراف الحديث. صوت الطيور يتناهى خفيضًا من السماء والحقول. تحتسي القهوة ساخنة. والليل يزحف كانسًا

ما بقى من آثار الشمس. كان كل شيء جميلا كصورة بلاغية فأحست بالسكينة تنسكب عليها سكبًا. كان يومذاك هو العشرون من مارس عام ٢٠٢٠، ليلة عيد ميلادها الثلاثين، وظنت أن أفضل ما تفعله للاحتفال هو أن تذهب للبحر ولأمها الحقيقية والوحيدة صفية. المسافة من طهم للإسكندرية ليست طويلة، وهي تحب الإسكندرية أكثر من أي محافظة أخرى. حاولت وقتها أن تتذكر من قال أن "الإسكندرية ماريا" لكن لم تسعفها الذاكرة. فمنذ بلغت الخامسة والعشرين وذاكرتها تضعف بشكل غريب، وتتذكر الأمور بصعوبة بالغة، ولا تكاد تذكر الشيء حتى تشك في تفاصيله مرة أخرى. وبالرغم من أنها كانت تنسى الكثير مما يدور حولها، كانت الأحزان والصدمات تفلت دائمًا من تحت عجلة النسيان. ظل الماضي، وحتى الحاضر، بشكله المظلم وتجاربه الصادمة صامدًا عتيًا. فلا يكاد يمضي شهر واحد دون صدمة جديدة تعيد تأكيد الصدمة القديمة. وفي مرحلة ما، لم تعد الصدمات تجرح أو تؤذي، باتت تذبح. ومضت في الحياة بوصفها كائن ذبيح البحر يرشح من عينيه.

مرت سنوات الجامعة كالثانوية، متدهورة دراسيًا. ولم يشفع لها ولعها الشديد باللغة العربية في الحصول على أي تقديرات. تخرجت بتقدير مقبول. ومنت نفسها بعد التخرج بالزواج من أي شخص طيب

تستطيع معه أن تجد كمية مناسبة من الطعام وقطع جيدة من الثياب. وحلمت أن تنجب بالطبع أطفالا وستربيهم تربية حسنة. فقد كانت تربية شادية لوائل درسًا قيمًا أمام عينيها.

•"يا الله"، صاحت فجأة ....

وسط كل تلك الخواطر انسكب جزء من القهوة على ثيابها. كان الطريق بين طهم والإسكندرية غير ممهد أو بالأحرى لا يصلح للاستخدام الآدمي خاصة في عتمة الليل. فلا تكاد السيارة تتجاوز مطبّ حتى ترتج من الدبش المفرود على الطريق منذ أكثر من عام. وعلى أثر الرج المتواصل من الدبش والحصى، عادت من خيالها للواقع وشعرت بالضيق من حرارة القهوة على جسدها ومنظر ملابسها المبقعة ومنظر الطريق وتكالبت عليها الأسئلة والخواطر: "لماذا يستغرق رصف طريق واحد سنة وأكثر! ما الذي يجعل طريقًا في القاهرة والمدن الجديدة سريع الرصف فيما يعاني أهالي الأقاليم ليل نهار من طرق غير ممهدة وحوادث عدة. إن هذا البلد وغيره من المحافظات يدفعون ثمن كونهم في الدلتا، تماما كما يدفع سكان الجنوب ثمن كونهم في الصعيد. لو كنا ولدنا في مدينة من المدن الجديدة كنا سنكبر على طرق ممهدة ومساحات خضراء لا بأس بها. عالم السياسة ومن يمارسها عالم قذرٌ بحق. كافة المتشدقين بحب النظام أو الثورة عليه يُنظّرون لمذاهب وأفكار رنانة

لكن معظمها شَكْلِيّ لا قيمة له. ربما لهذا السبب بالذات نجحت ثورة يناير في حشد الناس واستطاعت خلع رأس النظام. كانت دعوة هؤلاء الشباب مُجردة كليًا من أي خطب رنانة. كانت دعوتهم للثورة لا تنطلق من أي أيديولوجيات. طالبوا فقط بأنسنة السياسة. فهموا رغم صغر سنهم إن الحياة الكريمة لا تحتاج لنظرية سياسية بل لسياسة إنسانية. سياسة إنسانية! ما أبسطهما من كلمتين! زُهقِت في سبيليهما الكثير من الأرواح والأنفس. أنتِ نفسك يا علا؛ ازدادت عيناكِ انطفاءً عندما فشلت الثورة. لقد بهت كل أمل في تحقيق حياة كريمة منذ دُهس الأقباط تحت جنازير المدرعات. بل أن ما تلاها من أحداث في محمد محمود ومجلس الوزراء كانت مجرد محاولات باهتة لاستنساخ ثورة يناير بزخمها وقدرتها على الحشد والتوجيه."

•حمدلاع السلامة يا بهوات...

انتبهت حينذاك أن السيارة دخلت الإسكندرية وتوقفت في محطة الحافلات. ترجلت مع البقية وطلبت سيارة أجرة. كان البحر قد استحال لستار أسود ولم يبق منه غير إحساس العابرين بوجوده. أخرجت رأسها من نافذة السيارة وتخلل الهواء ورائحة البحر ثيابها فخففوا عنها وعثاء السفر. وصلت للفندق وسجلت دخولها وسط نظرات ارتياب من موظفي الاستقبال. نفس النظرات كانت تتلقاها

إذا سافرت للقاهرة واضطرت للمبيت في فندق. ينظر لها الموظفون الرجال بارتياب وكأنها مشتبه بها في جريمة. مجرد أن هناك فتاة ستمضي ليلة أو ليلتين في فندق بمفردها يثير حفيظتهم لئلا يكون شرف الفندق في خطر - وانبثق من بين المواقف سيل الأفكار - تنتهك حرمات آلاف النساء في الشوارع؛ بعضهن يقضين أيامهن تحت الكباري بثياب مُمزقة بالية ينهش كل سافل ضال أجسادهن قبل أنّ ينهشها ثلج الشّتاء وقيظ الصيف لكنهن لا يثيرن حفيظة هؤلاء. آلاف أخريات تمت تعريتهن في الأماكن العامة ووسائل المواصلات والسجون بل والتحرش بهن وحتى اغتصابهن لكنهن لم يثيرن حفيظة هؤلاء. ما أصدق المتني....

"أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد

صار الخصي إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود"

انقطع سيل الأفكار هذا بمجرد أن صعدت للغرفة. كانت بسيطة ونظيفة. فتحت باب الشرفة وكانت تطل على البحر مباشرة. يهدر أمامها ويناديها فشردت فيه وتواردت عليها الخواطر كما الحال. فالتفكير المُفرط والخواطر التي تُغرقها كالسيل ليل نهار كانا في الواقع حالة وراثية من اضطراب الوسواس القهري. حتى أن الجمال بكل ما يثيره في النفس من سلام وسكينة كان يذكرها بكل ما عانته من عذاب. وأيما معاناة! خلعت عنها ثيابها وفرغت حقائبها وألقت بنفسها تحت

الماء الدافئ وأغمضت عينيها وتذكرت أحلامها الغريبة التي تراودها منذ سنين عدة. كان البحر حاضرًا في آخر بضع سنين. يكاد لا يمضي شهر دون أن ترى موجات تسونامي عاتية تقترب من الشاطئ ليلا فيصرخ الناس ويهرعون حين يرونها وهي معهم تجري حتى لا يدركها الغرق لكنها لا تنجو. الموج شاهق، يصل ارتفاعه لعدة طوابق سكنية، يبتلع كل شيء حتى يهمد تمامًا. خرجت من تحت الماء وارتدت ثيابا ناعمة وفضفاضة ثم ألقت بنفسها على السرير. الجدران مدهونة باللون الأبيض والسقف كذلك إلا أن جدار من الجدران الأربعة منقط باللونين الأبيض والأزرق والأثاث كله باللون الخشبي والبني والشراشف بيضاء وهواء البحر ونعومة الوسائد أشبه بهدهدة لطفل وليد. نامت على الفور. ساعتان هما كل ما قضته نائمة قبل أن تستيقظ مفزوعة من حلم مزعج كالعادة.

رأت في أحلامها من الأهوال ما جعلها تعزف عن الحياة بأسرها وبات الموت بالنسبة لها بابًا نحو تؤدة أخيرة. التقطت أنفاسها وقفزت من السرير لحوض الاستحمام. وضعت كامل رأسها تحت الماء حتى هدأت وانفض عنها الخوف. ترى أشخاصًا لا تعرفهم منذ سنين. تذهب لأماكن لم تراها أبدًا وقد لا تكون موجودة على الإطلاق. تعيش أحداث في غاية الرعب والقسوة. كم أرعبها تتحقق بعض تلك الأحلام.

وكم أرعبها أن يتحقق الجزء الباقي. خرجت للشرفة؛ الليل في أوله؛ البحر المعتم؛ النجوم اللامعة والبكاء الكثير؛ كل هذا هدّأ من روعها. قررت الخروج سريعًا لئلا تنفتح بوابات الماضي على مصراعيها. طلبت سيارة أجرة وذهبت لمقهى رشّحه لها بعض الأصدقاء "Shakespearean Hub". لم تنسى الاسم أبدًا بالرغم من النسيان القهري الذي أصابها بحكم حالتها الصحية. كان الاسم لطيفًا ومميزًا، ووجدت المقهى نفسه كذلك. الديكور الداخلي كان باللونين الأسود والبني يتخللهما الأبيض والبيج، الأرضية من الخشب وعلى يسار الباب مكتبة من الأرض للسقف من خشب سميك وبها مجلدات وكتب قيمة وبالطبع كافة أعمال شكسبير. وجدت فيها مؤلفات عدة لأوسكار وايلد وكريستوفر مارلو وأنطون تشيخوف ودوستويفسكي وكثيرون من أئمة الأدب الإنجليزي والروسي وأمهات الكتب الكلاسيكية.

لفت نظرها كتاب قرأته من قبل، الأرض الخراب لتي إس إليوت. فسحبته ومضت خطوتين وعادت ووضعته مكانه وهي تقول لنفسها: "أي خراب يا علا الذي ستقرأين عنه بعد كابوس في أول الليل وعدة كوابيس أُخر تنظرك عند العودة. الخراب الحقيقي في رأسك وليس في قصيدة إليوت."

مضت للجهة المُقابلة من المقهى وجلست في زاوية بجوار النافذة

ترى ظلام البحر منبسطًا وصوت الماء يزمزم وهديره وهواه يرُجان الأفق. تصفحت الانترنت وفتحت قائمة الذكريات في الفيسبوك لتجد أن ما كتبته في نفس هذا اليوم قبل عام هو اقتباس لمحمود درويش: "لدي ما يكفي من الذكريات لأشرب قهوتي وحدي في مقهى يظنّهُ الجميع فارغًا.. لكنهُ يغصُّ بالغائبين!" أسندت رأسها إلى الشباك وتنهدت بأسى. مرت خمس سنوات ولا تزال أبسط العبارات قادرة على نبش قلبها والنخر في قصة سليم. القصة التي لا يجوز تسميتها بقصة من الأساس، قصة الرجل الوحيد الذي اشتهت وصله. تفكر في ذاك الحظ التعس الذي ألقاه في طريقها. قطع أحد العمال صمتها بعد فترة يستأذنها أن تنصرف. نظرت له بارتياب وهي تقول :أفندم! فأجابها مبتسمًا: "احنا بنقفل الساعة ١٢، وهي دلوقتي ١٢ إلا عشرة، بعد إذنك محتاج أنضف المكان عشان أسلم عهدتي." نظرت حولها فوجدت المقهى فارغًا إلا من العمال. فحملت نفسها ودفعت الحساب ثم مضت.

كان كورنيش الإسكندرية هادئًا. والنسيم الرطب يحمل لسعة برد من آثار الشتاء. صعدت على الرصيف ومضت تتأمل أنوار المدينة وهي تتلألأ وصوت الموج ينكسر على الشاطئ والقليل من السيارات تطلق صافرتها من وقت لآخر. ووصل لها صوت فيروز وهي تهدل "اعطني

الناي وغني" يتخلل الهواء وصولا لأذنيها آتيًا من مكان ما. كانت الأغنية خافتة وعذبة. وبدا لها أن النسيم يتراقص على ألحانها صعودًا وهبوطًا بين زاهدًا فيما سيأتي وناسيًا ما قد مضى. لم تشعر حينها بأن الوقت قد تأخر عن أن تسير بمفردها في الشارع. بل مضت تدندن أغاني فيروز لمدة ساعة كاملة وربما أكثر. وها هي الواحدة بعد منتصف الليل. يقترب منها رجل كبير السن في سيارته، تجاوز الخمسين غالبًا، هدأ من سرعته وأشار لها أن تركب.

شعرت برعب قارس على طول جسدها ونيران غضب تموج في صدرها. تريد الهروب من الكهل المتحرش والهجوم عليه وتمزيقه بضراوة في آن. غلبها خوفها من أن يخرج من سيارته ويلمس جسدها في أي لحظة. فجعلت تركض لمقهى آخر على بعد خطوات منها. كان فيه قلة من النساء والرجال فجلست حتى هدأت ثم طلبت سيارة أجرة أتت لها أمام باب المقهى وعادت بها لباب الفندق. دخلت غرفتها وهي تنتفض بعد أن شحذت محاولة التحرش كافة حواسها. تنهدت ثم خلعت ثيابها ونزلت تحت الماء مرة أخرى وخرجت منه أفضل حالا كالعادة. استلقت على السرير وغلبها النعاس وحدث ما يحدث كل ليلة. سلسلة من الأحلام الجلية والكوابيس. رأت إنها في بيت يجلس فيه نبي الله نوح على أريكة مع شخصين رجل وامرأة، سألته أين السفينة؟

فأجابها: "السفينة مكسورة"، ارتعدت في الحلم ومضت في اتجاه آخر من البيت وهي تبكي على شهداء الثورة. استيقظت من النوم وعلى طرف لسانها كلمة الشهداء من أثر ما صرخت في الحلم الشهداء الشهداء. سحبت هاتفها سريعا ومضت تقلب صفحات حساباتها على مواقع التواصل وتتماهى مع أي شيء مكتوب أو منشور لتنسى ما رأته للتو حتى غلبها النعاس مرة أخرى. رأت سليم يقف بجوارها وهي جالسة على كرسي أمام منضدة وضع يده على كتفها ومال برأسه على رأسها. خفق قلبها حتى كأنه ذاب وسال بين ضلوعها. في لحظة ما في الحلم أدركت إنه حلم وقالت لنفسها: "الله يخليكي متصحيش – متصحيش." ففتحت عينيها في الواقع. شعرت بحزن بالغ وبكت. كان وعيها لا ينفك عن إيقاظها من الأحلام الجميلة بعد أن يدرك إن ما يحدث مجرد حلم إلا أنه يتركها في الكوابيس مرعوبة رغم إنه يدرك إنها مجرد حلم أيضًا. ضمت عليها ساقيها وانساب منها الدمع دون إرادة حتى بانَّ الصباح. خرجت للشرفة وعكفت تتلو بعض التسابيح والأذكار حتى سكنت - رغم ذلك - ظل سؤال قَفْر لا إجابة له يباغتها: "لماذا؟" لا تنفك تسأل نفسها وهي تبكي. أخذت تناجي الله بصوت رخيم: "لماذا أنا يا رب؟ أقدري أن يحترق قلبي إلى هذا الحد!

بدأت قصة سليم بركات قبل هذا اليوم بثماني سنوات. حين دعاها

أستاذ الفلسفة في جامعتها لندوة عن الفن والفلسفة. كان سليم رغم صغر سنه صديقًا مقربًا من معظم أعضاء هيئة التدريس بسبب قريحته الثقافية وشهرته كواحد من أبناء طهم المتميزين. فقد ناقش رسالتي الماجستير والدكتوراة خلال خمس سنوات من تخرجه من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. ويعمل منتدبًا في الجامعة لتدريس الفلسفة السياسية مرتين في الأسبوع. كان أول حوار يجمعه بعلا يومذاك فلسفيًا من جانبه، عاطفيًا من جانبها. فالفتاة التي تشبعت روحها بحب اللغة العربية على يد زوجة أبيها فُتنت بقدرات سليم اللغوية التي تؤهله لأن يكون أديبًا.

بدأ سليم حديثه معها بعد الندوة بعبارة قصيرة ولطيفة حيث قال: لكأن البريق فيما تكتبين مصدره عيناكي؟!

تطورت مشاعر الإعجاب لحب بعدما تابعته على منصات التواصل الاجتماعي حيث كان يكتب بحذاقة عن كل ما يجول في خاطرها حتى كأنه مُطّلع على ما تفكر فيه إبان تفكيرها فيه. ولعل ما زاد الطين بله أنها بعد أن عاشت ردحًا من الزمان في براثن العنف الأسري والعوز والحرمان، وجدت في كلامه من اللين والوداعة ما جعلها تظن أنه بلسم سيضمد جراح عُمرٍ طويلٍ من الأذى. فالفتاة التي كانت تريد الزواج لمجرد الهروب من فخٍ الأسرة المؤذية، صارت بعد سنوات من القراءة والعلم والعمل عاجزة عن المُضي نحو زواج تقليدي غرضه الفكاك من

وضعها المعقد.

وقد فطنت مع مرور الوقت أن ما يسحبها نحو هذا الرجل على نحو الخصوص شيءٌ لم تختبره من قبل، شيءٌ عصيٌ على الفهم والتفسير. صحيح أن الشكل يألف شكله والطيور على أشكالها تقع. وصحيح أن اثنين لا يتناسبان إلا لما اجتمعت فيه نفوسهم مِن المعنى الخاص، لكنها سألت نفسها بعد مرور أول عام: هل كانت مشاعري لتختلف لو لم يكن سليم هو سليم بركات ذائع الصيت! وكانت الإجابة "لا".

كانت سعة الدقائق والساعات تختلف معه أيما اختلاف. تتمدد اللحظات وتتسع وتضم في ثناياها ما لا تسعه كلمات حتى لكأن الساعة الواحدة بقربه كانت أثقل وزنًا مِن كل أحزانها وأفراحها. وهكذا مضى الأمر. نزعت الفتاة إلى أن ما يجمعها به شيءٌ أكبر من تشابه الاهتمامات والميول. إنها تعرفه على نحو خاص. وما ينبت بين ضلوعها شيءٌ أقرب للعمل الفني. شيءٌ اسمه الحب، نَمَا فيها إلى أن امتلأت به. لكأن الحب كعادته مصنوع مِن زمنٍ خاصّ. تكررت اللقاءات بينهما بسبب وبدون سبب. باتوا يرتدون مقهى معين دون غيره ويمضون الساعات في أحاديث تتفتح بانسيابية ودون جهد. تبادلا الآراء حول كل ما هو تافه وكل ما هو عميق.

السحاب الذي يتلون بألوان الشمس حسب موضعها في السماء

وقت الغروب. ومحاولة الصين السيطرة على مضيق تايوان من أجل غزو لا فكاك منه سيشعل فتيل حرب عالمية ثالثة لا محالة، وقد قال لها في مرة: "إن عيونك يشع منها بريقٌ خاص. ستكون وحدها بلا شك الملجأ الآمن الوحيد إذا اندلعت الحرب."

نظرت له آنذاك على استحياء وبادرت قائلة: "شكرًا على كل تلك المجاملات اللطيفة يا سليم."

ـــ : "مجاملات! ألا ترين أن الحيادية الشديدة التي تصرين عليها في استقبال أي إطراء أو حتى غزل، فليكن كذلك، تجعله باهتًا وفاقدًا لمعناه؟"

❊❊ : "وما الواجب فعله إذن أمام المديح المتناثر هذا؟"

ـــ : "تقبليه يا عزيزتي. إنها حقيقة كونية. فمثلما تشرق الشمس من الشرق كل يوم فإن صوتك المتهدج يُطيّب أوجاع السامعين. يُضمد جراح الجنود في الخنادق والغزلان الناجية من الصيد في الغابات. أن صوتك وعيناك بل وكل ما فيكِ ينبعث منهم شيءٌ حلوٌ تطيب إليه نفسي.

❊❊ : "كفاك يا سليم كفاك."

ـــ : "كم استمتع بهيئتك التي تضطرب أمام كلامي. الحياء يبدو

جليًا للعيان على مسيرة أمتار منك."

مَن كان يتخيل أن كل تلك الذكريات الجميلة ستصير لاحقًا كجلد السياط. فقد أتى اليوم الذي استبد بها الحب وبلغ الشوق مبلغًا أنها لم تعد ترى بديلا عن أن تنتقل للعيش معه ليلا ونهارًا وللأبد. أرادت ببساطة أن تتزوجه. وودت لو يتم الأمر في أسرع وقت وبأبسط طريقة ممكنة. وفي سبيل ذلك، أقدمت على مواجهة لا بد منها. وقد ظلت تعتبر تلك المواجهة إحدى أخطائها الكبرى حتى دلفت إلى بحرها الأخير. دار في ذاك الحوار ما يدور عادة عندما يتنصل شابٌ من فتاة. استخدم بركات لفيفًا من المفردات التي اهترأت من كثرة الاستخدام مثل: (لم أقصد - لقد أسأتِ الفهم - أنتِ أختٌ بالنسبة لي - أنتِ تستحقين شخصًا يحبك فعلا - إلخ...). كانت ردوده رشيقة ودبلوماسية تمامًا كوظيفته. لا ينفك يتهرب من كل موقف تواجه به بمنتهى الذكاء. النظرات الهائمة العاشقة التي كانت تراها في عيونه لم تكن سوى انبهار إنسان بإنسان مثله. السؤال المتكرر مِن قِبله عن أسماء الأطفال الذين ترغب فيهم كان محض فضول. حتى أن دعوات احتساء القهوة لأسباب واهية كان دافعها الرغبة في معرفة سر ولعها باللغة العربية وغير ذلك من الكتب والأمور المعرفية. وهكذا، خرج بركات من الموقف كما تخرج الشعرة من العجين. استطاع برشاقة وحذاقة لا مثيل لهما أن يجعل الفتاة تظن

أنها هي مَنّ اختلقت القصة اختلاقًا وهي وحدها مَنّ تتحمل تبعات أي تصورات وخيالات رومانسية لا هو. وانتهى الحوار يومذاك كما تنتهي الرحى من طحن الحبوب. شعرت أن كل ما فيها يضيق بها، ليس جسدها أو نفسها فقط، بل الزمن بأسره. لقد شعرت أن تلك اللحظات القاسية هي الأبد.

عادت يومذاك لمنزل خديجة وجعلت تحكي لها ما كان. تارة وهي تبكي بحرقة وتارة وهي تضحك بسخرية. تعبر لها عن صدمتها ودهشتها وانكسارها. فإذا بخديجة تقول لها: "أنتي مكنتيش بتتخيلي ده كان بيعاكسك قدام عيني... بصي يا علا أنا هقولك على حاجة بس متزعليش إني خبيت عليكي..

- : خبيتي ايه؟ أنتي تعرفي حاجة؟
- : أنا شفته بيعمل كده مع بنات كتير بس مكنتش برضى أقولك عشان مجرحكيش.
- : بنات مين؟ أنتي بتتكلمي جد؟
- : مش معنى أن واحد بيكتب كلام منمق وشاعري على الفيسبوك إنه متدين أو محترم وجميل يا علا. وحتى لو بيقولك الكلام ده في قاعدة مخصوصة مفيش أسهل من الكلام - ده في النهاية شاب

في عز شبابه وحوليه كل البنات دول. الحاجة الوحيدة اللي ممكن تخليه ميدلعش مع دي شوية ودي شوية أنه يكون راهب أو شاذ. وهو لا راهب ولا شاذ.

امتد الحوار بين الفتاتين إلى مطلع النهار. وحكت خديجة لعلا عدد من القصص التي تناهت لسمعها أو شهدتها بنفسها عن فتيات تلقين نفس الصفعة من سليم بركات. وانتهت علا إلى الحقيقة المُرة. لم تكن سوى حلقة في سلسلة من الفتيات اللواتي استخدمهن بركات للتروية عن نفسه.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين انقطع سيل الذكريات والأفكار. دخلت من الشرفة وانسلّت تحت الماء الدافئ تتخيله مطر يغسلها من الداخل والخارج. وخرجت من حوض الاستحمام تضع بعض منتجات العناية بالبشرة والمعطرات كعادتها. ارتدت ثيابها القطنية الفضفاضة ورفعت شعرها الذي ينسدل حتى آخر ظهرها. نظرت لنفسها في المرآة، ورغم كل شيء، ابتسمت.

نظرت في الساعة وكانت تقترب من العاشرة. فأسرعت بوضع غطاء الرأس ونزلت لبوفيه الفندق قبل أن ينتهي موعد الإفطار. البوفيه مفتوح للنزلاء الذين تواردوا على صنوف الطعام يختارون أيما شاءوا. سحبت طبق من طاولة الأطباق ومضت تغرف من كل صينية

ما ترغب. وضعت الطعام على طاولة بجوار النافذة وجلست تأكل على صوت البحر. رائحة الفول ذكية ومذاقه طيب والفلافل كذلك مع بيضتين مسلوقتين وقطعة جبن وعصير البرتقال والخبز. فتحت النافذة وبدأ هواء البحر يدغدغ وجهها وهمهمات النزلاء من حولها تختلط بصافرات السيارات والمارة في الشارع. الشمس ذهبية والموج هادئ والأجواء صافية وصوت المدينة يدب بالحياة. تمتلك بضع آلاف من الجنيهات في حسابها البنكي. مبلغ كافي لتقضي أسبوع كامل في الفندق وسيتبقى جزءا كافيا لتعود لمقهى شكسبير. عادت للغرفة حين انتهت. فخلعت ثيابها ووقفت تمشط شعرها حتى شردت عن نفسها أمام المرآة. تذكرت خديجة التي كانت دائماً تخبرها أن عينيها حزينتان وأن فيهن عمق شديد وكأنهن نوافذ على عالم آخر. يطل حزنها من عينيها العاريتين، تلك النافذة الشفافة كانت تفضحها دائماً. لم تعرف أبدا ماذا تقول عندما كانت تُسأل كيف حالك أو لماذا تبكين كثيرًا أو لماذا عيناكِ بهذا الحزن. عانى طبيبها النفسي ذاته وهو يحاول استخراج الكلمات منها. لم تعرف ماذا تقول أو من أين تبدأ. كانت تحمل رأسًا ثقيلاً. يحمل الكثير من الكوابيس والأحلام المعطوبة ومقبرة في الحلق تموت فيها الكلمات قبل أن تبلغ طرف اللسان. كانت جلسات العلاج النفسي ذاتها مرهقة وتخرج منها عاجزة عن الحديث أكثر مما دخلت.

ما الذي يستطيع إنسانٌ أن يفعله أمام الزمن إذا قرر دهسه بأقدامه الثقال! تذكرت كلمات الطبيب النفسي في أول جلسة لها بعد أن سمع منها عبارات متناثرة من قصص مختلفة: "أنتي قلبك فيه دمل والدمل ده لازم يتصفى ويتنضف." شعرت بإرهاق بالغ بعدما تذكرت كل هذا. فتمددت على السرير وغفت.

رأت إنها تجلس في قاعة صغيرة مع بعض الفتيات وسليم يقف أمامهم يشرح شيئًا ما، كان ينظر لها من حين لآخر، فخجلت لأن الفتيات الموجودات لاحظن نظراته، فتركت القاعة وخرجت. وجدت نفسها على طريق سريع، كان هناك شاب تعرفه يركب سيارته لكن وقع له حادث فصرخت في الحلم باسمه. وجدت سليم بجوارها في تلك اللحظة كان يقول شيئًا ما وأحتاج أن يجلسا كلاهما، عبرا الطريق ودخلا مكانًا به غرف صغيرة، فاكتشفوا إنهم في المقابر، كان سكان المقابر من الأموات والأحياء يرحبون بهم، فتحت سيدة باب غرفتها وعرضت عليهم الجلوس عندها فدخلا. لم يكن في الغرفة أي أثاث، كانت قبر بحق، خالي من أي شيء ما عدا سلم ينحدر نحو ظلام دامس، ظلام لا ترى منه أي شيء، هذا الظلام في الحلم هو الموت. كان سليم متعبًا جدًا ويشعر بحزنٍ بالغ لم تدر سببه لكنه قرر أن يموت. هبط درجات السلم نحو ذاك الظلام وهي تصرخ عليه مرات متتالية بألا يموت. لم تدر كيف

خرجت في تلك اللحظة روحها من جسدها ونزلت السلم نحو ذاك الظلام بحثًا عنه. وقف جسدها متجمد على أول السلم لا روح فيه ولا حول له ولا قوة، وعقلها ووعيها يشاهدان ما يحدث من زاوية علوية وروحها بالأسفل لا يعرفون ماذا حدث لها. غابت لحظات وصعدت روحها مرة أخرى وهي تحمل سليم ودخلت جسدها. طلبت منه أن يخرجا من المكان. فإذا بالسكان قد انقلبت مودتهم لغضب وحنق. كان كلاهما خائفان ومشيا مسرعين حتى خرجا من المقابر. أمام المقابر حاول أن يُقبّلها فاستيقظت. شعرت بجسدها باردًا فتدثرت بغطاء السرير وهي تبكي بتأوه ونشيج. اعتدلت في جلستها بعد حين وضمت رجليها ولفت ذراعيها حولهم. شعرت حينذاك أن هذا من أغرب ما حلمت به على الإطلاق. كان شعور خروج روحها من جسدها لا يزال كائنًا بين ضلوعها. ظلت ترتجف وتبكي حتى رنَّ هاتفها. نظرت في الساعة وكانت قد قاربت السادسة مساءًا. هذا الحلم الذي بدأ فور ما غفت واستيقظت فور انتهائه لا يتخطى عشرين دقيقة على أقصى تقدير لكن في الواقع كانت علا قد قضت أربع ساعات نائمة. نزلت من السرير للحمام خلعت ثيابها ودخلت تحت الماء حتى هدأت وتمالكت نفسها. خرجت وارتدت ثيابها مرة أخرى وبضع قطرات من الدمع لا تزال تتسرب من مقلتيها وهاتفها يرن مرة أخرى فتنفست بعمق

وردت:

- "مرحبا تايكة..
- "حبيبة لباس!"
- "أنتِ فين دلوقتي.."
- "لبست حوايجي، وغادي ننزل دبا من لوطيل؛ ونتي؟"
- "أنا أيضًا سأنزل بعد قليل، هتعرفي توصلي للكافيه؟
- "وي، مشينا ليه البارح، غادي نهبط لعندك دبا، نتلاقاو تما. Au revoir, prends soin de toi.."
- "مع السلامة يا جميل.

تعرفت علا على تايكة عبر الفيسبوك، وهي شابة مغربية في نفس عمرها. أتت مع أسرتها في رحلة سياحية إلى مصر لمدة أسبوعين وهي موجودة في الإسكندرية لمدة ثلاثة أيام. طلبت تايكة منها أن يتقابلا. كانت علاقتهما الافتراضية جيدة أصلا فدعتها لاحتساء القهوة في مقهى يوناني قديم اسمه "لونا". أسرعت علا في ارتداء ثيابها وحاولت أن تبدو منمقة ومليحة في أول لقاء لهن. ارتدت قميص من الدنيم الأزرق وبنطال أسود من الدنيم أيضًا وفوقهم معطف بني طويل. سحبت

حقيبة يدها السوداء وأسرعت نحو المصعد بعد أن طلبت سيارة. وفي الطريق إلى لونا اتصلت تايكة وأخبرتها إنها تنتظرها في المقهى.

وصلت وهي مسرورة لأنها ستقابلها بعد سبع سنوات من التواصل الافتراضي. وما إن دخلت حتى تعرفت عليها من النظرة الأولى. كانت تايكة طحينية البشرة عذبة الملامح، وجهها بيضاوي ومكتنز قليلا، في نفس طول علا تقريبًا، ١٧٠ سم، كثيفة الحاجبين وعيونها لوزية سمراء، أنفها يوناني صغير، وشفتيها ممتلئتين. كانت ترتدي تنورة حمراء داكنة وسترة جلدية سمراء والقليل من الحُلي. وقفت حينما رأت علا التي تعرفت عليها هي الأخرى. ابتسمتا لبعضهن وضاقت العيون بسعة الابتسامة، تعانقتا عناقًا طويلًا وجلستا وبدى عليهن الحبور والفرح.

قالت علا: "تعرفي إن دي أول مرة أسمع عن الكافية ده، أنتي تعرفيه منين؟"

تايكة: "بابا يعرفه كان يجي للإسكندرية بزاف، و هو اللي نعتو ليا، بابا يعرف مولاه العم حسين. هو اصلا كان ديال واحد العائلة يونانية كانوا عايشين هنا حتى الستينيات د القرن الفايت، و فين هاجروا باعوه لواحد صاحبهم مصري، خلا المبنى كيف كان، كان مودرن في ذاك الوقت. وهو وولده قرروا يعاودو يفتحو القهوة اواخر التسعينات و خلاوه اسمه لونا."

امتلأ وجه علا بالبشاشة وهي تستمع لصديقتها وردت تقول: "حسنًا، دي كانت مقدمة تاريخية جيدة للمقهى، أنتي شاطرة في السرد يا تايكة في الحقيقة زي ما أنتي شاطرة على الفيسبوك."

ضحكت تايكة ولمعت عيناها وأردفت: "لا أستطيع أن أصدق أنني هنا معكي وجها لوجه. أخيرا بعد كل هاد السنوات.."

تهللت علا وهي تجيب عليها قائلة: "ولا أنا والله."

ابتسمت تايكة وقبل أن ترد وجدن النادل يقف أمام الطاولة يسألهن عما يرغبن. أخبرته علا؛ فيما بدت تايكة حائرة، وطلبت من النادل أن ينتظرها قليلا وهي تقلب صفحات قائمة المشروبات يمينًا ويسارًا. فقلبت علا هي الأخرى في المقهى بعينيها. السقف مُسطرًا بألواح خشبية سميكة مُعلق فيها الكثير من النباتات التي يتدلى بعضها على الجدران الأربع، المدهونة بالبني والأزرق السماوي والمزينة بلوحات فنية كلاسيكية. تدور مقطوعة الدانوب الأزرق لستراوس على جرامافون عتيق وتترامى ألحانها للأذن فيطيب لها الوجدان. ابتسمت لصديقتها وعادتا تتجاذبان أطراف الحديث.

- "ها، مصر عجبتك؟"
- "لحد الان ماشفتش غير اسكندرية و هي زوينة بزااف، المهم

طمنيني عليك كيف راك حبيبة؟"

- "أنا بخير. الحمد لله ماشي الحال."
- "وكيفها أمك ووائل؟"

انزعجت علا من السؤال لكنها أجابت: "زي ما هما."

شعرت تايكة بالحرج من سؤالها لأنها كانت تعلم بأن وضع علا في البيت سيء لدرجة كبيرة." فعادت وقالت لها: "مايمكنش تخيلي قداش فرحانة اني شفتك، كنت متابعة حسابك قبل ما نتعرف أصلا بسنتين. كنت ديما تنقول هاد البنت على درجة كبيرة من الوعي وتتمتع بأسلوب جيد في الكتابة. قرأت مقالاتك عن الشعر العربي القديم والمعلقات وعمري ما تخيلت اننا نكون صاحبات و نتلاقو بعد كل هاد الوقت."

ابتسمت علا باستحياء وقالت: "وعي..!".

– : "نعم، وداك الإنكار الدايم لوعيك وثقافتك يجعلك أكثر علماً وثقافة يا علا والله."

استحت مرة أخرى، وتراجعت للوراء والنادل يضع المشروبات على الطاولة. ثم اقتربت مرة ثانية من تايكة وهي تقول: "ما هو الوعي يا تايكة، كيف أستطيع أن أصف شخص ما إنه إنسان واعي؟ ما الفرق بين الحلم والحقيقة؟"

تمتمت تايكة وهي تفكر ثم قالت: "ما هذه الأسئلة الفلسفية يا ست علا، لقد كان الوصف سهل وبديهي حتى سألتيني عنه؛ شعرت إن الوعي عملية معقدة."

تطلعت علا نحوها وهي صامتة، ومضت وهلة ثم قالت: ربما نحن فقط نهرع على خطى من سابقونا، نكتسي بأفكارهم وآرائهم، لأن تكلفة أن يكون للمرء رأيه الخاص باهظة الثمن، ولا أحد يرغب في دفعها."

نظرت لها صديقتها بتعجب وقالت: "قولي لي يا علا، كيف صرتي إلى ما أنت عليه! كيف تشكّلتي وكبرتي لتصبحين علا سالم! اش هو الثمن اللي تيعطيه الانسان باش يكون بحالك! أو بالأحرى، ما الذي على الفتيات والنساء فعله ليصبحن مثلك، نتي انثى فريدة unique و spécial وماتحاوليش تنكري هاد القضية، أنا متأكدة إنكِ تتلقين عبارات المديح والإطراء وأن كثيرين لابد قالوا لكِ كم أنتِ مميزة."

كانت وجنتي علا قد تحولتا لتفاحتين حمراوين وقتذاك؛ وتايكة تنظر لها وهي تنتظر الرد لكن انعقد لسانها من الحياء. ضحكت تايكة حتى قهقهت وهي تقول: "oh bébé."

فضحكت علا هي الأخرى وانفرج لسانها: "ميرسي يا ستي. لكن خلينا نرجع لنقطتنا ما هو الوعي يا عزيزتي، وعلى أي أساس يعتبر إنسان

ما واعي أو مثقف، على اعتبار أن المثقف هو الواعي بمدى جهله؟"

-: "هاد لسؤال عويص بالزاف، قولي أنتي يا ست علا.

- : "أنا أيضًا يا تايكة لا أعرف، أو بالأحرى لا أفهم، هل يمتلك كلٌ منا وعيًا خاصًا به تحت جلده يأتي به مُسبقًا لهذه الدنيا، أم إنه يتشكل عبر السنين، وإذا كان الإنسان يأتي للحياة صفحة بيضاء فهل هو من يختار لاحقًا ما الذي يعيه! أعني، إننا على كل حال لا نفهم موقعنا من الوجود إلا بعد عدة سنوات من الولادة. وبعد أن يكون قد فُرض علينا الكثير والكثير من المسارات والسياقات."

-: "أتعرفين يا لزوينة أن نتشه كان يعتبر الحياة مرادف للألم والمعاناة، هذا أول ما خطر لي وأنا اسمعك. أنتِ مُثقلة بالكثير من الأسئلة وستقضين حياتك في بحث شاق عن إجابات، وستكون حياتك فعلا شبيهة بالتعريف النيتشوي للحياة."

-: ربما لا تكون هناك حياة لي على الإطلاق يا تايكة!

-: ماذا تقصدين؟

-: مفيش متشغليش بالك. المهم، ما أقصده أن ما نعتبره وعي بالذات وبالوجود من حولنا قد يكون مجرد محاولة منا للسيطرة على مسارات فرضت علينا عنوة أو دون وعي منذ الولادة. هل أختار أحد

دينه أو اسمه أو لونه أو جنسيته قبل أن يأتي للوجود!

-: نعم يا علا، أفهم ذلك، وفي هذا الوضع الذي تكون فيه معظم مواصفاتنا مفروضة علينا والقليل منها محض اختيار، لا نزال مطالبين باختيار من نكون وأن نكون مسؤولين عن اختيارنا هذا في إطار كل تلك الحدود التي تُقيدنا منذ الولادة والتي يكسرها بعضنا أحيانًا.

-: كان هناك فيلسوف يقول أن الاضطهاد واللاإنسانية هما وسيلة البشرية الكبرى لتعريف الإنسانية، غاب عني اسمه بمجرد ما أردت تذكره، الشاهد يعني، أحبذ معياره هذا في فهم أمور عدة، بالتضاد تتضح الأشياء. إن الغبطة التي يعيشها الإنسان وهو حديث عهد بالحياة وأبلة هي ما تجعل المعرفة مريرة كالعلقم في حلقه وهو هَرِمَ.

-: صحيح، وعمومًا مجرد طرح كل تلك الأسئلة ينم عن غياب الجهالة عندك على الأقل.

-: أتعرفين يا تايكة، أتذكر بيتنا القديم الذي كنت أقيم فيه مع بابا وماما صفية قبل أن تتوفى. أشعر بالغبطة عندما أتذكرها تطوف في البيت تروي الزهور والنباتات وهي تغني؛ وعندما أسألها أين أطفال كل زوجين من الزهور تبتسم وتضم وجهي بين كفيها وتخبرني أن أطفالهم هي تلك السعادة الموجودة في عيني، كنت في الخامسة من العمر

أصدق أن الزهور تُنجِب سعادة. آآآه يا تايكة، كم أشتاق لكفوف يديها كعصفورٍ يشتاق لعشه الصغير. مهلا، إنه ثيودور أدورنو تذكرت!

-: ماذا؟

-: الفيلسوف الذي قال أن الاضطهاد واللاإنسانية هما وسيلة البشرية الكبرى لتعريف الإنسانية. إنه أدورنو.

في تلك اللحظة، رن هاتف تايكة وفهمت علا أن أهلها يستعجلون عودتها للفندق. وبالفعل استأذنت تايكة أن تنصرف وطلبت منها أن يتقابلا في اليوم التالي في ساعة مبكرة، فاتفقتا على الرابعة عصرًا ورحلتا.

مضت السيارة على كورنيش الإسكندرية وعلا شاردة في شعور خروج روحها من جسدها الذي اختبرته لأول مرة بعدما كانت تظن إنها لن تختبره إلا بعد أيام قليلة في قرار البحر. كانت خائفة من العودة للفندق بأن يغلبها النعاس وتدخل في سيل الأحلام الجلية والكوابيس مرة أخرى، فتراءى لها أن تمشي قليلا، ترجلت من السيارة ومضت تفكر فيما حدث. إن ما خرج من جسدها لم يكن أي طيف أبيض كما يتم تصوير الروح في الأفلام أحيانًا، لم يكن ما خرج قابل للمس أو الرؤية. لقد شعرت فقط بشيء كثيف، كأنه طاقة، تخرج وتهبط نحو الظلام وترفع سليم وتعود به وتدخل جسدها مرة أخرى. لقد رأت جسدها

من الخارج رؤيا العين لكنه كان يقف هامدًا بلا حراك. كان فارغًا كبيت لا أحد يسكن فيه على الإطلاق. وكان وعيها ينظر لذلك ويراها ويرى روحها. لقد كانت ثلاثة أجزاء منفرطة واجتمعت ببعضها فإذا هي تعود مرة أخرى لما كانت عليه.

وجدت نفسها مرة أخرى أمام الفندق بعد سير طويل. صعدت لغرفتها وخلعت ملابسها وغمرت نفسها بالماء الدافئ مجددًا، ثم قفزت في ثيابها القطنية الناعمة وطلبت العشاء، غمرها النوم ولم تحلم بشيء حتى دق باب الغرفة بعد نصف ساعة معلنًا وصول الطعام.

جلست تأكل وهي مستسلمة لهدير الموج والمدى الأسود الذي يتحول إليه البحر ليلًا. بدى لها أن كل شيء في الكون بخير وعلى ما يرام بعد أن نامت نصف ساعة بلا كوابيس. تأكل مما كسبت يداها طعامًا شهيًا سائغًا. البحر يعزف هدير الموج وحفيف الهواء. المال يكفيها لعدة أيام. وصديقة دمثة الخلق ستقابلها غدًا وسيستعيدان حوارهما الشيق معًا. خفق قلبها خفقة سكينة وطمأنينة وقتها. لم تك في تلك اللحظات المعدودة قد شفيت من جروح الماضي ولم تكن تعرف ما يحمله لها الغد. لكن كانت بخير ما يمكن لإنسان أن يكونه فقط لأن لا شيء يعوزها. أخذت تأكل وهي تبحث في هاتفها عن مقطوعة باخ، الهواء على الوتر هـ. وأطنبت مع الموسيقى بكامل حواسها ثم قالت بصوت واضح

كأنها تتحدث إلى شخص ما: "الموسيقى تخترق كافة الأشكال المبهمة للحياة فتعطيها لغة ولسانًا تُعبر بهم عن معناها. ثم كيف لمقطوعات موسيقية معينة أن تستعدي اسمًا بعينه لدى مؤلفها ليُطلقه عليها. إن الآلات تنفض معًا فيشق الهواء طريقه نحو الكمان فعلا. لابد أن باخ كان يعزف هذه المقطوعة بقلبه قبل أن يكتبها بيده. الهواء يداعب الأوتار ويُطلق منها ألحانًا تبعث على الارتياح فعلا."

غسلت أسنانها بعد ذلك وهي تستشعر أن كل ما في جسدها طيب ومعافى. وتذكرت كيف كان الحال منذ خمسة عشر سنة، عندما كان رغيف المدرسة حلمًا تُمنِّي نفسها به والذهاب لطبيب إذا مرضت أمرًا مستحيلًا. شعرت أن هذه الذكريات مر عليها ردحًا من الزمان فقط لأنها في تلك الدقائق المعدودة كانت بخير ولا يعوزها شيء. ابتسمت لنفسها في المرآة وقفزت إلى السرير مرة أخرى. سحبت الغطاء وتركت قائمة مقطوعات باخ تدور حتى غرقت في النوم كليًا. رأت أن بيت جدتها لوالدتها يحترق وطالته النيران من كافة الجوانب. وأقاربها بداخله محبوسون خلف ألسنة اللهب لم ينقذهم أحد. تجمع حشد هائل من الناس حول الحريق ومنهم امرأة بدت مألوفة الوجه؛ نظرت لها واقتربت مبتسمة وقالت:

- أنتي مش فاكراني؟

اندهشت علا وحاولت التدقيق في ملامح المرأة وأن تتذكر أين رأتها من قبل. فعادت الأخرى وقالت:

- "أنا اللي كنت بكلمك جنب الشجرة يوم ما كنتي واقفة في الجنينة."

تذكرتها علا على الفور. فقد رأتها بالفعل منذ عدة شهور في صباح يوم آخر عند منزل جدتها. كانت واقفة في حديقة قديمة تابعة لجيرانهم بجوار شجرة تتحدثا بشأن أمر ما عن الطبيعة أو الزهور. في تلك اللحظة استعرت النيران فركضت علا خائفة فاستيقظت في الواقع. كان قلبها يدبدب بين ضلوعها وأنفاسها مضطربة. تناولت كوب ماء وشربت وتنفست ببطء حتى هدأت. تذكرت فعلا أنها رأت تلك المرأة التي كانت معها في الحلم. في نفس المكان كما ذكرت، ففزعت وضمت عليها ركبتيها وتقوست في وضعية الجنين. كانت المرة الأولى التي تراها فيها أيضًا حلم. لم يكن حلمًا سيئًا. تعجبت؛ أنَّى للإنسان أن يتذكر حلمًا في حلم آخر! وشعرت أنها إما تُجن أو جنت بالفعل. فانكمشت على نفسها وذرفت الدمع وحيدة ثم غفت بعيون أحرقها الدمع وأثقلها النعاس.

باتت أحلامها أغرب وأغرب من ذي قبل. كانت فيما مضى تحلم بجن وشياطين وحيوانات مفترسة تطاردها، ولكنها الآن تحلم بشيء

عصي على الفهم والتفسير. رأت نفسها بعد ذلك على سفر ذاهبة لمكان بعيد فيه بحر، وصلت إليه متأخرة بعد منتصف الليل، فاستوحشت المكان لعدم وجود ناس، وقفت على الشاطئ والبحر هادئ وهناك نور خافت كنور الشفق القطبي ليلا لكنه فضي يُضيء السماء. السحب دائرية شبيهة بالدوامات أو المجرات، ملفوفة نحو الداخل. الأجرام السماوية قريبة وواضحة جدًا مثل الشمس والقمر. كان المنظر كله أبهى من أي شيء رأته في حياتها، لكن قلقها بأنها بمفردها على الشاطئ في بلد غريب بعد منتصف الليل كان حاضرًا؛ فاستيقظت.

شعرت بهدوء وانشراح فور تذكرها ما كانت تحلم به. كان المكان أجمل من أن يكون واقعًا. سحبت هاتفها وأخذت تُقلب فيه لدقائق معدودة ثم نهضت من الفراش. الشمس بازغة في الأفق والساعة تناهز الثامنة. ذهبت للحمام وقامت بروتينها اليومي ثم ألقت بنفسها في ثيابها ونزلت للفطور.

قاعة الطعام شبة فارغة إلا من عدد قليل من المقيمين. إحدى أغنيات محمد فوزي تدور بصوت رخيم مُغردًا: "حاكم الزهور زي الستات". تناولت فطورها المعتاد ونزلت للشارع. القليل من الناس يركضون والبعض في نزهة صباحية مع حيواناتهم. عمال النظافة يكنسون الأرصفة والتفكير القهري يمارسه مهامه المعتادة. كانت تعتقد دائمًا أن

مهنة عمال النظافة هي أشق المهن قاطبة؛ ليس على مستوى المشقة البدنية بالرغم من إنها قد تكون كذلك أيضًا، لكن لأن العاملين فيها يتحملون وضعًا قاسيًا جدًا، إنهم ينظفون أقذر الشوارع ويجمعون القمامة بأيديهم العارية من أي حماية، بأجساد أكل عليها الدهر وشرب. كانوا أبطال. فلأن يكون الإنسان مُستعدًا للقيام بأكثر الأعمال مشقة للجسد والنفس من أجل توفير بضع لُقيمات لبيته وأهله لهو عملٌ بطولي بحق. وتمنت آنذاك لو أن بيدها الأمر فتنصفهم اجتماعيًا وماديًا. إنهم يعرضون أنفسهم للموت يوميًا بتعاملهم مع صناديق تفوح منها روائح لا قِبل لبشر بها. أي مقدار من البسالة والشجاعة ذاك الذي يصل بالمرء لأن يغرس يده في صندوق قمامة لينظفه. لعنت السياسة التي لا تلقي لهم بالًا. وتخيلت لو أن ثورة الخامس والعشرين من يناير كانت نجحت. هل كان الوضع ليكون مختلفًا ولو قليلًا! حدثت نفسها: "كنا ننادي بإسقاط نظام نحن أنفسنا جزءًا منه. إن ما نجحت فيه الثورة فعلا هي إنها كشفت عن عوراتنا جميعًا وإننا لا نختلف كثيرًا عن الأصنام التي أردنا تحطيمها."

انتبهت حينها لأحد العمال وهو ينظر لها بعجب، وأدركت أنه مر بضع دقائق وهي واقفة تحملق فيهم. استحت واستدارت لتعود للفندق، قبل أن تتوقف أمام ماكينة صراف آلي في صفٍ طويل تنتظر

دورها فانبثقت من بين لحظات الانتظار عشرات الذكريات. تذكرت كيف كانت الحال في طهم. كانت مُشرّدة في المكان الذي كان بالنسبة للعديد من الناس "سكنًا". كانت مُشرّدة في بيتها. يبلغ راتبها في الشهر الآن آلاف الجنيهات، بالرغم من أنها خرجت برصيد دراسي سيء وظنت أنها لن تُقبل أبدًا في أي وظيفة، أتاها الغيث من حيث لا تحتسب. أصقلت القراءة من لغتها العربية أكثر فأكثر وكان حبها للشعر واللغة بابًا نحو رغد العيش. فقد رشحتها خديجة لرئيس تحرير جريدة الأوقات للكتابة عن الشعر العربي براتب لم تكن تحلم به، خمسمائة جنية عن كل مقال. صُعقت حين سمعت الرقم وانهالت عليها الأفكار حتى أنها عكفت تتخيل وصول أول راتب لها قبيل موعده لليالي عدة. تارةٌ تتخيل الثياب التي ستشتريها. وتارةٌ تتخيل كل ما تشتهيه من الطعام. كان صوت الأوراق النقدية وهي تخرج من الماكينة لأول مرة أشبه بنزول الغيث على قوم من بعد ما قنطوا. قبضت على المال بين يديها كغريق يتشبث بحبلٍ النجاة. وصار صوت الأوراق النقدية في الماكينة يسعدها في كل مرة كأنها أول مرة. حتى في أيامها الأخيرة تلك، شعرت بالطمأنينة حينما وصلت للماكينة أخيرًا وسحبت المال ووصلت للفندق ودفعت ثمن الغرفة لبقية الأسبوع. وما إن صعدت واستلقت تحت الماء الساخن حتى استرخت كليًا وهي مطمئنة. ويكأن لا كوابيس

كانت تطاردها بالأمس أو سَتُغير عليها فيما بعد. بل أقر عينيها أن أيامها الأخيرة ستكون بلا ضوائق مالية. أخذت ترتدي ثياب النوم وتمشط شعرها أمام المرآة وهي تغني بصوتٍ عذبٍ أرخى عليه الزمان ستارًا من شجن. جلست تتصفح الانترنت حتى شعرت بالنعاس فسحبت الغطاء ونامت. وتكرر ما حدث بالأمس.

رأت نفسها أمام بيت جيرانهم المهجور مرة أخرى. الشبابيك مفتوحة وهناك شخص يقف معها متعجبًا من جماله، فتذكرت أنها رأته من قبل وأخبرت هذا الشخص إنها رأت البيت مفتوحًا من قبل وعجبت لجماله وترتيبه، لكن اخترق سمعها صوت جرس في الحلم فاستيقظت في الواقع. كانت تايكة تتصل قبيل ميعادهن لتعرف هل نزلت علا من الفندق أم لا. دهشت علا أن هذه الدقائق المعدودة في حلم غريب كانت في الواقع بضع ساعات. لم تستطع الرد على تايكة، وأرسلت لها تخبرها إنها ترتدي ثيابها وستنزل في الحال. وكالعادة، قبل أن تخرج وحين تعود من الخارج يجب أن تنزل تحت الماء. في الطريق للونا كانت تفكر في الحلم. لقد رأت فعلا البيت مفتوحًا ونظرت في جماله وفخامته كما أخبرت ذاك الشخص في الحلم، لكن كان هذا نفسه حلمًا سابقًا رأته حين غفت في محطة الحافلات قبل أن تنطلق نحو الإسكندرية. وتعجبت أنى لعقلها أن يتذكر حلمًا في حلمٍ آخر مرة

أخرى! شعرت بالخوف من نفسها لكن حمدت الله أن كل هذا سينتهي قريبًا.

كانت تايكة في انتظارها بنفس الابتسامة الآسرة والعيون البراقة والذراعين المفتوحين فتعانقا. وبعد أن طلبتا القهوة والمعجنات وتبادلتا السلامات، سألتها علا: ازاي يونس قدر ينفصل عنك يا تايكة، أيترك رجلٌ عاقلٌ كل هذا الجمال ويقبل الطلاق؟

ابتسمت تايكة وسكتت لبرهة ثم تنهدت قائلة: "أتعرفين يا علا - أحيانًا أشفق عليه وأشعر أنني ظلمته بالرغم من أن كلانا كان موافق على الطلاق. وهو نفسه كان يعلم بعد العام الأول ديال الزواج إننا عمرنا نكونوا فرحانين. الفرق اللي كان بيناتنا كان تيسوّس في عظام زواجنا. وغادي تكون غير قضية وقت ونتفارقوا ديك الساعة اتفقنا إنه نتفارقوا غادي يبقى بيناتنا احترام كبير قبل مانوصلوا لمرحلة مانبقاوش فيها قادرين حتى على احترام بعضياتنا - خفت بالزاف إني أخسر حتى احترامي لنفسي.

تعجبت علا وهي تنظر لها، لقد تحولت العيون البراقة في دقيقة واحدة إلى مُستقرٍ لحزنٍ جسيم. فسألتها: ما كل هذا الحزن يا تايكة؟ وما هذا الذي قد يجعلك تخسرين احترامك لنفسك؟

فأردفت تقول: إن أسوأ ما قد يحدث لأي امرأة يا عزيزتي هي أن تجد نفسها محبوسة في علاقة مع شخص لا يُشبع فيها أي شيء. كان يونس ظريف وطيب - هادي اعترف بها ... المشكل اللي كاين هو انه ماقادرش يتفهم افكاري - بعض المرات كان تيتعجب من العدد ديال الفلوس اللي تنخسروا على الكتوبة و تيعبرها تضييع فلوس . خفت بزاف إني نلقى شي راجل آخر ونبغيه أو غير إني نفكر فيه وأنا مزوجة بيونس. حتى التفكير في رجل آخر كان بالنسبة لي خيانة. رحلت قبل أن أخسر احترامي لنفسي، ورحل هو حفاظًا على كبريائه كرجل بعدما أدرك إنه لن يملأ قلبي أبدًا.

صمتت الفتاتان كلتاهما لبرهة، ثم عادت علا وسألتها: لماذا قبلتِ بالزواج به من البداية إذن؟

اختلجت عيون تايكة بالدموع واحمرت وجنتاها واستحكم صوتها أنينًا. خشت علا أن يكون الحديث مع تايكة عن زواجها السابق قد أزعجها. مسكت يدها بكلتا يديها وضغطت عليها وقالت: أنا آسفة حقًا يا تايكة. ما كان يجب أن أتطرق لهذا الأمر. سامحيني من فضلك..!

تنهدت تايكة وهي تمسح دموعها وقالت: "لا عليك حبيبتي، أنا أبكي لأمرٍ آخر. لقد وافقت على الزواج بيونس وأنا في السادسة والعشرين من عمري كنت خايفة نبقى بايرة كيف ما كانوا تيخلعوني

العائلة والناس القراب والبعاد .. كان يونس شاب ظريف ومقبول - خالد كان عاد تزوج ... كان مرضني و عياني الشكل اللي عشقتو بيه و كوا قلبي فين تزوج ... تلت سنين وأنا غارقة في حب واحد الجهة. قبلت بأي واحد جا من بعده غير باش نخرج من الشبح دياله اللي سيطر على حياتي..، لكن فين تزوجت من يونس حتى لقيت راسي اني طحت فيما هو فسح من الحب واحد الطرف على هاد الشي تحديدا تنحس بواحد الذنب كبير جهة يونس - كانت محاولة الهروب من شبح خالد فاشلة. هو لا يغادر خيالي – أراه في أحلامي باستمرار. وحتى محاولة الهروب من شبح العنوسة باءت بالفشل، ها أنا ذا - خرجت من خانة العانس لخانة المطلقة في مجتمع يعتبر المرأة التي تتأخر في الزواج أو تنفصل عن زوجها آثمة بشكلٍ ما.

في تلك اللحظة انفجرت تايكة في البكاء، وقبضت بكلتا يديها على يد علا وهي تجهش وبالكاد تستطيع التقاط أنفاسها: أنا مذبوحة يا علا. لو كنت أعلم إن لقائي العابر بشخصٍ سيغير حياتي للأبد ما ذهبت إليها، ليتني مُت قبل أن أراه أو أعرفه.

شعرت علا بثقلٍ جاسم على صدرها وهي تستمع لها، وبكت معها عليها. وودت لو تخبرها بحلمها بسليم وكيف أن روحها غادرت جسدها وعادت، لكن ثقل لسانها، وتاهت عنها الكلمات، فلا عبارات

تسع ما شعرت به ولا حالة تايكة تسمح بالحديث عن الأمر. كل ما فعلته أنها انتقلت وجلست بجانبها وأخذتها تحت جناحها وقالت:

- كفاك بكاء بالله. نحن أفضل حالا من غيرنا رغم كل ما مررنا به، سوف تنسين وتتجاوزين كل هذا وتقفين على أطلاله. وعمومًا يا ستي لا الخالي مرتاح ولا العاشق مرتاح على رأي نجاة.

ضحكت تايكة وبدأت تدندن بين أحضان علا بكلمات الأغنية وهي تأن فطوقتها علا بكلتا يديها وغنين معًا بصوتٍ ملأه الأسى وغلبت عليه الشقوة: يا ورد يا ابو الشوك ارتاح مش كل الحلو تفاح .. لا العاشق مرتاح ولا الخالي مرتاح..

وحين هدأت تايكة عادت علا لمقعدها. وعادا يتبادلن أطراف الحديث عن الحب وبادرت تايكة بالسؤال: آش هاد شي أ علا؟ هاد شي اللي عذب الناس وخرّج ليهم العقل حتى ناضو يقتلوا في بعضهم، اش هو البغو أ علا؟

نظرت علا لها ثم نأت بوجهها نحو البحر وصمتتا كلتاهما دون أن يقلن شيء - وحين عادت علا للنظر نحو تايكة كان وجهها مختلجًا بلوعة وحزنٍ شديدين. فقالت تايكة: سليم، وي، ما كان يجب أن أفتح باب الحب ... Je suis très désolée.

ابتسمت علا ابتسامة هادئة، وطبطبت على يدها وقالت: لا عليكِ، هو لا يغيب عني على أي حال، لقد غادرت عالمه منذ زمن لكنه لم يغادر عالمي قط - الحب بالنسبة لي شرحه يطول ولا أريد أن أثقل عليكِ بفلسفتي التي قد تكون في نهاية الأمر محض هراء.

ضحكت تايكة ضحكة خافتة وتنهدت وهي تقول: ديما تيعجبني بزاف هبال الزوينة، والله حتى صوتك الزوين بوحدو اللي تيعجبني.

عادت علا وابتسمت ثم قالت: ماشي يا ستي، أظن إن المشكلة في الحب هي إننا مش عارفين ايه هو الحب أصلا. الحب واحدٌ من أكثر الأمور التي يُسيء الإنسان فهمها طوال حياته.

- شنو كاتعني؟

- سأشرح لك. الواحد بيقضي عمره وهو منتظر يلاقي الشخص المناسب اللي يحبه بصبابة ووله. وفي سبيل ذلك قد يسعى المرء للتحلي ببعض الصفات التي تُسهل مهمة البحث وعلى رأسها أنه يكون جذابًا شكلا وموضوعا ليفوز بقدر معين من القبول النفسي والاجتماعي لدى الآخرين. إننا نظن طوال الوقت أن مشكلتنا هي إننا لم نجد الشخص المناسب الذي نبادله مشاعر الحب. في حين أننا نادرًا ما نسأل أنفسنا هل نحن صالحون أصلا للحب أو نعرف كيف نحب!

- كيفاش نحب؟
- أوك، اعطيني مساحتي بقى بعد إذنك عشان أفتي براحتي.

أسندت تايكة ظهرها للمقعد وهي تضحك وقالت: أتفضلي أفتي يالزوينة.

إن مشكلة النظرة للحب على إنه حالة تعطينا إياها الحياة بشكل رومانسي وغير متوقع هي ما جعلت انتظار الوقوع في الحب مؤلم يا تايكة. لأننا قد ننتظر العمر كله بلا جدوى. ولو أن الحب هو تلك الحالة التي يغمرنا فيها الشعور بالبهجة والحميمية المفاجئة تجاه شخص معين فلماذا لا يدوم هذا الإحساس. إننا نعتبر إن شدة الإعجاب والانبهار هي الحب، لكنها في الحقيقة مجرد انجذاب بين اثنين لدى كل منهم تخيلات معينة لا تلبث أن تتكشف أمام صدمات الحياة. المأساة تبدأ فعلا عندما يحدث انجذاب مفرط بين اثنين يعتقدان إنهما وجدا خير ما يمكنهم إيجاده في إطار وضعهم الاجتماعي. تخيلي يا تايكة الدور الذي تلعبه الإمكانيات الاجتماعية والمادية عندما يحاول شخص ما شراء منزل أو سيارة مثلا في ثقافة يسودها اتجاه السوق والقدرة على المقايضة. الأمر سيان.

هزت تايكة رأسها وقطب جبينها كشخص تملكته فجأة الدهشة و

قاطعتها قائلة: "والله أ علا ماميتقة راسي، ديما في بالي واحد القضية، ماتنتزوجوش غير تنتبادلو، مايمكنش تخيلي شحال أنا فرحانة إنه ماشي بوحدي ف هاد شي .. سمحي ليا قاطعتك كملي كلامك.."

- "ولا يهمك يا حبيبتي، المهم إن شدة الافتتان هنا ما هي إلا نتيجة لمقايضة مادية تمت بوعي أو دون وعي عند طرفي العلاقة. فالرجل الوسيم الناجح الذي يتمتع بأمان مادي وقبول واعتراف اجتماعي يبحث في رحلته عن فتاة لديها ما تُقايض به تلك الصفات. وعليه، فهي غالبا ستتمتع بشهادة علمية مرموقة وقدر مناسب من الجاذبية الجنسية والقبول وما إلى ذلك. الحُبّ يا تايكة، في ثقافة السوق التي تغمرنا تلك، ما هو إلا خليط من أن يكون المرء معترف به اجتماعيا ومقبولا ويتمتع بقدر من الجاذبية والوسامة. ما يحدث أقرب للداروينية الاجتماعية ليس أكثـ....

- "سمحي ليا نقاطعك ثاني ماقادراش نصبر، عرفتي يونس قبل مايطلق كان حزين، الدرويش خسر بزاف ديال الفلوس ف تزويجة خاسرة."

غمغمت علا بجزع وصمتت برهة ثم عادت تقول: "يا إلهي، أي زواج هذا الذي يكون المال فيه أكثر اعتبارٍ وقيمةٍ من البشر. أتعرفين! لهذا السبب عينه يفشل معظمنا في علاقته بالآخر. أن خمسين بالمائة من

حالات الزواج في مصر تنتهي بالطلاق. وأعتقد أن الوضع في المغرب ليس أفضل حالا. الغريب يا تايكة أن لا أحد يفكر لماذا ينتهي السواد الأعظم منا إلى انكسارات وخيبات أمل بلا حدود. إننا نعيش في مجتمع ينقر فوق رؤوسنا لنتزوج، لكن لا أحد ينقر فوق رؤوسنا ليعرف إن كنا نمتلك القدرة على الحب أم لا. الحب موهبة يا تايكة، مثله مثل الكتابة أو الغناء. إذا كان شخص لا يمتلك الموهبة فسيفشل لا محالة. الناس في انجذابهم الأعمى نحو بعضهم البعض لا يلقون بالا لأي شخص ولا أي شيء خارج حدود علاقتهم التكافلية القائمة على المقايضة. الحب في حقيقته مَلكة تنمو بالحفاظ عليها ومراعاتها. من يريد أن يغني يجب أن يكون صوته عذب في المقام الأول وبالإرشاد والتعلم سيصير مغنيا. كذلك مَن يريد أن يعيش في قصة حب لا تنتهي عليه أن يكون في المقام الأول طيب السريرة يا صغيرتي، وأن يتعلم كيف يحب وليس كيف يُقايض. إن أنقى أنواع الحب وأسماها على الإطلاق هو ما أتى في الكتب السماوية. الحب الأخوي "أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك" كما في الإسلام، أو كما أتى في المسيحية "أحب جارك حبك لنفسك". هذا هو الحب الحقيقي والوحيد يا تايكة. وهو ما قد يضمن نجاح أي علاقة عاطفية سواء كانت بين ذكر وأنثى أو غير ذلك.

كانت تايكة في تلك اللحظات تحدق في علا. وترغب في مقاطعتها

مجددًا لتقول شيئًا مهمًا. شيءٌ يتعذر تحمله على طرف اللسان، تهز رأسها من حين لآخر وهي مصغية تمامًا لكلام علا الذي ينسكب في أذنيها مباشرة. ومضت الأخرى تتحدث عن الحب بحماسة كمن يُلقي خطابًا حماسيًا وتقول:

- أن الإنسان إذا أحب شخصًا مِن منطلق حب لأخيك ما تحب لنفسك، ستكون المعاملة بينهم قائمة على الاحترام المتبادل بدون أي اعتبارات مادية أو جنسية أو اجتماعية. أن يراعي الإنسان الآخرين من حيث هم بشرٌ مثله، فقط بشر، وليس وفقا لما يتمتعون به من امتيازات اجتماعية أو شكلية. إن أخس المهن وأشقاها مهما بلغت من الوضاعة لا تجرد المرء من كرامته وجوهره الإنساني طالما أنها لا تحمل وصمة أخلاقية. احترام الذات الإنسانية واحتياجاتها وراحتها بلا أي شروط أو اعتبارات هو ركيزة الحب الحقيقية. أن الشخص الذي يعطف على اليتيم والضعيف والفقير من منطلق أنه كان يود أن يُعامل بنفس الطريقة لو كان في ذاك الموضع يمتلك ملكة الحب. أما الشخص المتعجرف أو المغرور لهو بحق أعجز العاجزين عن الحب حتى لو كان يظن إنه واقع في غرام شخصٍ آخر. إنه عاجز عن حب الجميع حتى نفسه، والآخر هذا هو ما استطاع مقايضته بما لديه من منصب مرموق أو ثراء أو علم.

- لا أعرف يا علا أأقول لكِ شكرًا على الإجابة أم ليتك ما

أجبتي. دبا تأكدت إن داكشي اللي كنت تنحسوا جهة خالد كان بغو و حب ديال بالصح وحقيقي. اشتعلت النار في صدري يوم L'accident de voiture qui lui est arrive - فين قريت في الفايسبوك دخلت لبيتي ليلة وأنا تنبكي - غير بان ضو الصباح حتى نضت تنجري أ لوبيتال اللي خداوه ليه. عطيت رشوة غير باش نشوفو من بعيد. تبلوكيت فين شفت خطيبته تتبكي حدا فراشو و ماماه جالسة تتدعي ل الله يشافيه و يكون معه حتى يفيق من الغيبوبة اللي دخل. كان الكولوار اللي غادي ل عامر بعائلته وصحابو - حسدتهم كلهم لأن اي واحد منهم كان قادر يدخل عنده ويقيس ايده، و أنا لا، مانقدرش كنت واقفة بعيد مخبية وروحي تنحس بها تتريب طرف طرف وأنا خايفة وحزينة عليه. فين خرجت بكيت و حلفت باليمين إني عمري نسمح فيه و حتى اذا سببت ليه الكسيدة فشي اعاقة. قررت اني نعرض عليه نتزوج به اذا سمحات فيه خطيبته. كنت تنبغيه أ علا لواحد الدرجة اني كنت مستعدة نتزوج به واخا يكون مشلول وماقادر يدير والو.

اعتصر الألم قلب علا وهي تسمع. ما أشبههن في العذاب! نظرتا لبعضهن البعض وساد بينهن صمتٌ طويل ما لبث أن شقه النادل وهو يرفع الفناجين عن الطاولة ويتأكد إنهن لا يردن شيئًا آخر. كانت الشمس قد تجاوزت كبد السماء. الضياء يتفسخ والليل يتفشى. النوافذ

غلفها الظلام والوجوه بهتت تحت الأضواء الذهبية للمقهى. ومر ما مر من الوقت لم تنبث إحداهن بكلمة، حتى رن هاتف تايكة معلنًا عن مغادرتها فوقفتا كلتاهما وعانقن بعضهن عناقًا طويلا تخللته الدموع. وودت علا أن تقبض على تايكة فلا تُفلتها أبدًا، وأن يبقيا مع بعضهن للأبد، أختان وصديقتان، لكنها كانت تعلم أن هذا الحلم شأنه شأن كل أحلامها البسيطة مستحيل التحقق.

أجهشت في البكاء وتايكة بين ذراعيها تأن ولا تقوى على فك ذراعيها هي الأخرى. طال العناق وارتفع النشيج. التفت لهن بعض الموجودين في المكان ومضى وقتًا طويلا حتى أفلتت كل منهن الأخرى. طلبت علا من تايكة أن ترسل لها رسالة نصية تطمئنها إنها عادت للفندق سالمة حين تصل، ثم خرجت من المقهى دون أن تفارق عيونها عيون رفيقتها. ثم عادت لنفس الطاولة وطلبت المزيد من القهوة، تتنفس بعمق لكن عجزت عن السيطرة على دموعها وانتاب جسدها تراخ شديد. شعرت أنها عاجزة عن لملمة شتات نفسها وأن كل شيء داخلها يتصدع ويتهاوى. الذكريات المؤلمة تسيل دمعًا من عينيها دون إرادة منها. كانت تنتظر أن تودع تايكة لتقدم على الأمر إلا أن اللقاء جعل الأمر أصعب من ذي قبل. وشعرت أنها ستغرس سكينًا جديدًا في صدر المسكينة التي مزقها حبها الضائع وزواجها التعيس. أحست

بتأنيب الضمير إلا أن لا شيء كان ليردعها عن فعلتها. كان لديها يقينًا راسخًا في قرارة نفسها أن موعد رحيلها قد حان. وما هي إلا سويعات معدودة حتى تخرج من هذا الفخ الذي يُسمى العالم.

هناك حزنٌ لا يترك في الصدر متسعًا لشيء. لقد تحسنت أحوالها المادية بالفعل لكن لم يُنسها المال شعور العوز والحرمان. كانت كل مرة تشتري فيها طعامًا تتذكر قرص الجوع الذي عاشته كأنه بالأمس - وحين دخلت محل ملابس لتشتري ثياب جديدة لنفسها بعد سنوات طويلة من ارتداء ملابس الجمعيات الخيرية لم تشعر بأي متعة أو سعادة. شعرت أن كل المال على كثرته أفقر من أن يمنحها السعادة أو الرضا.

وصلت الثلاثين من العمر وهي تحمل الماضي بداخلها حيًا. صحيح أن سنونًا عدة كانت قد مضت لكن العذاب الذي تكبدته لم يمض قط، حتى كأنها محاربٌ في معركة حامية الوطيس ما إن تنتهي حتى يكتشف كم الجراح التي خلفها العراك. وها هي بعد ثمان سنوات من العمل والنجاح والرواتب المجزية - لا تشعر بلذة أي شيء مما وصلت إليه. انطبع الحزن على محياها وكانت عيناها تلمع دائمًا كأنها توقفت لتوها عن البكاء. تبدو للناس من الخارج فتاة طيبة في الثلاثين من العمر تتمتع بقريحة أخلاقية وثقافية لا بأس بها، وتعمل في جريدة مرموقة، شديدة الأدب والحياء، ومعروفة بكرمها وإنها عادة ما تكون في عون

من يحتاجها. يظن من يراها عادة أنها تلقت تربية حسنة في بيئة مناسبة وتمتعت برعاية من حولها وهم من أحسنوا تربيتها على هذه الشاكلة. إلا أن أحدًا لم يكن ليتخيل حجم المعاناة التي عاشتها. وأن العطاء واللين والطيبة المتجذرين فيها كانوا في حقيقتهم ثمار سنين من القحط والمعاناة.

عادت للفندق في تلك الليلة وهي عازمة على إنهاء الأمر في سويعات معدودة؛ فلا حاجة لها في أيام تحمل معها المزيد من الكوابيس والذكريات، وكعادتها، انسلت تحت الماء وهدأت من روعها بنفسها وخلدت للنوم بعدما تبادلت بضع رسائل مع تايكة التي بالرغم من كل المحبة والود بينهم لم تتجرأ على اخبارها بأي شيء. كانت صديقة قريبة منها لسنين وكانت تعرف أن علا عانت إثر وفاة زوجة والدها ومن بعدها والدها نفسه. وأن شادية لم تكن أما صالحة، لكنها لم تعرف شيئًا قط عن سنوات الفقر والجوع والعنف الأسري التي عاشتها. عجزت علا كليًا عن سرد ما حدث لها لأي شخص حتى أن طبيبها النفسي ذاته بذل وقتًا وجهدًا طائلا ليفتح هذا الصندوق الأسود بداخلها. حاول هو الآخر تنظيف هذا القرح الذي اعتبره كالدمل، وبالفعل تحسنت حالتها لفترة وهي تخضع للعلاج النفسي. كان تشخيص الحالة ذاته مريحًا بالنسبة لها. وقد أوضح لها الطبيب أن وظيفته ليست أن يجعلها تبرأ من الماضي كأنه لم يكن، بل أن يجعلها تتقبله وتشفى منه ثم تتجاوزه وتمضي

قُدمًا في حياتها. مع ذلك، لم يُفلح الطبيب نفسه في كبح جماح الكوابيس. لقد كان تشخيصه بعد الجلسات الأولى أنها تعاني اضطراب الوسواس القهري واضطراب الكوابيس الحاد ناتج عن اضطراب ما بعد الصدمة وأن لديها ميول انتحارية وصورتها عن نفسها مشوهة للغاية وعلاقتها بأسرتها شديدة الاضطراب. وبالرغم من أن فكرتها عن نفسها تحسنت بالمضي قدمًا في العلاج إلا أن ذلك لم يمحو الحزن من داخلها ولم يضع حدًا للكوابيس. ساعدها طبيبها النفسي في التأقلم وتقبل ماضيها كقدر. فهي لم تكن قبيحة الشكل كما كانت تظن. غرست فيها والدتها ذاك الشعور بسبب تفضيلها للذكر. وبالطبع لم تتفهم الصغيرة أن هذا التصرف من قِبل والدتها إنما ينم عن شخصية مريضة وعاجزة عن حب الجميع حتى نفسها. ظنت علا أن وائل يحصل على كل شيء لأنه أفضل منها ويستحق ذلك، أما هي فأقل منه شكلا وموضوعًا ولا تستحق أي شيء على الإطلاق. كبرت وهي تظن أن بها علة ما ستمنع أي شخص من الإعجاب بها وأن يحبها حبًا صادقًا. وحتى عندما تمنت الزواج للتخلص من سطوة البيت التعس الذي نشأت فيه، لم تكن تنتظر أن تُحب، بل أن يقبل شخص ما بها، فقط يقبل بها، وكانت راضية بذلك وكان ذاك في نظرها أمثل الطرق للنجاة مما هي فيه حيث ستجد من يطعمها ويكسيها ويعيش معها بدون عنف أو تهديد. مع ذلك فإن هذه

الأمنية رغم سذاجتها لم تتحقق بل مضت السنون وهي تتغير من حال لحال حتى زهدت في الزواج كليًا. ها هي الفتاة التي كانت ترغب في الارتباط لتنجو بحياتها من فخ الأسرة المشوّهة. هي نفسها التي عزفت عن الزواج بمرور السنين لمَّا رأت الحب سببًا وحيدًا يبرر الالتصاق بشخص مدى الحياة، حتى أنها حمدت الله إنها لم تتزوج ولم ترزق بأي أطفال حتى تستطيع أن ترحل في سلام. فبعدما غطت في نوم عميق رأت شيئًا أبشع من أن يكون من نسج خيالها أو خيال أي بشرٍ. رأت عفريتًا على حائط منزلها في طهم. وانعقد لسانها من هول المنظر في الحلم لدرجة إنها لم تنطق بأي شيء. كان أشبه بالسحالي الضخمة مثل تنين الكومودو لكن بلا ذيل، وكان لا يمشي ولا يزحف بل يقفز لأن أطرافه الأربعة على عكس أرجل السحالي معقودة للخلف، وعوضًا عن المفاصل له مرابط فلا يستطيع أن يمشي أو يجلس فقط يقفز. جلده سميك مثل قشرة جرح تملأه قروح صديدية أشبه بالحراشف. وبالرغم من أن الحلم لم يكن فيه أي كلام ولا أشخاص غيرها، إلا أنها في الحلم كانت تعلم كما يعلم الحالمون عادة أنه عفريت.

حين استيقظت لم تبكي كعادتها ولم تنسكب من ملابسها وتخر في حوض الاستحمام. ظلت عيناها مفتوحتين على وسعهما. تحملق شاخصة في سقف الغرفة بلا أي حراك بجسدٍ متخشب كعود ثقاب.

استمرت على تلك الحال من الجمود حتى سمعت أذان الفجر فبث فيها بعض الطمأنينة وبصعوبة بالغة مدت يدها نحو الهاتف وقامت بتشغيل سورة البقرة وبدأت كعادتها تتقوص في وضعية الجنين. تتنفس ببطء وتقول لنفسها بصوت خفيض: "ده أثر الكوابيس دي من أعراض المرض. مفيش حاجة - متخافيش. الكوابيس دي أوهام لأني مريضة مش أكثر، متخافيش متخافيش."

وعلى هذه الحال ظلت مستلقية لساعات لا تقوى على مغادرة الفراش أو الذهاب للمرحاض حتى دحضت الشمس عتمة الليل، وفك رنين الهاتف الذي تكرر ثلاث مرات وثاق خوفها. تمالكت نفسها وأجابت. كانت تايكة تطمئن عليها وترسل لها الكثير من القلوب والقُبلات الطائرة من القاهرة. هدأ الود في صوت تايكة من جزعها ونهضت من الفراش وهي تشعر أنها غريبة عن هذا العالم أو إنها كانت في عالم آخر وعادت للتو.

حملت نفسها على الذهاب لحوض الاستحمام وجلست تحت الماء الساخن وهي تأن كمن به قرحٌ. وما إن خرجت حتى خارت قواها وسقطت أرضًا تجهش بالبكاء. مرت الدقائق والبكاء يعصف بها وينقلب لتأوه ونحيب. تحاول، لكن دون جدوى - أن تقف مرة أخرى. دون جدوى. كقربة ماء انبجست، ينسكب منها الدمع حارقًا منسابًا.

عادت للفندق يومذاك بعد أن اختارت المكان الذي ستنام فيه للأبد. في تلك الليلة لم تشعر بالخوف من أن يتكرر ما رأته ليلة أمس. كان ما يفصلها عن الرحيل التام سويعات معدودة ولم تعد تبالي أي رعبٌ ذاك الذي قد يهاجمها وهي نائمة. سيغرق معها كل شيء على أي حال. كل شيء سيطمسه الماء. الوحوش المفترسة التي طاردتها والمخلوقات غير البشرية التي رأتها والماء المظلم الذي غرقت فيه وهي تستغيث مرارًا بصوت أخرس، السقوط من الأماكن المرتفعة، والشهداء والأنبياء الذين تكرروا لها، وحتى ماضيها البائس وحاضرها الثقيل، كل ذلك عن بكرة أبيه سيطمسه الماء. سيغرق معها كل هذا الذي أرادت قوله لكنها لم تعرف كيف تقوله أو من أين تبدأ. ستغرق ويغرق معها كل هذا الأسى وستنغلق تلك الهاوية للأبد وكأن شيئًا لم يكن. ما قد تراه في نومها قبل الذهاب التام لن يكون أسوأ مما مضى ولا أقسى مما هو آت في ظلمات بحرها الأخير.

وقر في قلبها يأسُ إنسانٍ لم يعد يخشى شيئًا. وقررت الفرار من هذه النفس واختارت الشاطئ الذي ستذهب إليه في ليلتها الأخيرة. بقي فقط بعض الأمور العالقة التي عليها إنهائها. أرادت أن تكتب رسالة لخديجة وأخرى لتايكة ولطبيبها الذي خاض معها رحلة علاج استمرت ست سنوات ونجحت في إصلاح الكثير ماعدا الكوابيس.

كانت في غمار يأسها هذا واعية بأنها صارت أقوى من والدتها وابنها، وأنها تنعم بقسط وافر من الصحة، كما أن لديها وظيفة مرموقة تضر مبلغ جيد من المال كل شهر، لكن هذا كله الذي كان يُسمى الواقع كان باهتًا أمام الأحلام. كان عالم الأحلام يشلّ واقعها بأسره. طبيبها نفسه رأى أنها تعاني تضافر عدة اضطرابات نفسية. وأن الكوابيس قد تكون متعلقة بكيمياء أو كهرباء الدماغ وطلب منها إجراء أشعة رنين لكهرباء الدماغ بالفعل لكن كانت كهرباء الدماغ سليمة بشكل نموذجي. أخبرها كذلك وبصراحة إنها وصلت لاضطراب الوسواس القهري لأن شخصيتها كانت مُجهزة ومُعدة سلفًا لأن تضطرب من كثرة ما عانت وبدافع الوراثة أيضًا. أخبرها أن تلك أمراض مزمنة. يحتاج المرء لتقبلها والتأقلم معها وتناول بعض الأدوية إذا لزم الأمر، لكن لا شفاء منهم. وجدت صعوبة في تقبل الأمر في البداية حيث كانت تظن أن الوسواس القهري هو ذاك الذي يدفع الناس لغسل أيديهم مرارًا وتكرارًا ظنًا منهم إنها ليست نظيفة كما ينبغي. أو إنه ذاك الذي يدفعهم لفعل أمر ما بدافع سيطرة فكرة معينة عليهم بشكل قهري. لم تكن تتخيل أن التفكير الزائد وفيض الأفكار الذي تغرق فيه كل يوم هو بعينه اضطراب الوسواس القهري. وأن الهوس بالنظافة أو الغسيل الذي يتسم به البعض مجرد شكل مختلف لنفس المرض لكن على

المستوى السلوكي لا الفكري. لم تكن الفتاة عضويًا مُصابة بأي شيء مِن شأنه أن يجعلها تحلم لعقود بدون انقطاع ولو ليوم واحد - ثلاث أو أربع كوابيس في الليلة الواحدة - ليس هناك أي تفسيرٌ علميٌ لخروج روحها من جسدها أو لسفينة نوح المكسورة أو العفريت على جدار منزلها في طهم أو الوحوش الضارية التي تُطاردها.

رأت على مدار السنين مئات الأشخاص الذين لا وجود لهم في الواقع. ذهبت لأماكن شديدة الغرابة أحيانًا وشديدة الرعب أحيانًا أُخر. عاشت أحداث يندى لها الجبين وبكت حتى كادت تغرق في دموعها. خَلَّفَ موت أمها الحقيقية وأبيها قلبًا خاويًا ونهش الجوع والفقر جسدها ونخلوه. ثم أتت هزيمة الثورة فنحرت رقاب الجميع، مَن ماتوا ومَن بقى حيًا، حتى كأن مَن مات كان الأكثر حظًا في نظرها. في خضم كل هذا تكالبت عليها الكوابيس وحبستها في نفسها بلا مخرج أو باب. إنها محبوسة في نفسها على هذا الحال منذ سنين. ما الذي قد يُنقذها من ذاك الحبس؟ لا يوجد ثورة تستطيع أن تنقذ الإنسان من نفسه. مضت سنوات وهي ترتدي قلبها على وجهها وبعينين يكسوهما الحزن حاولت أن تعيش. كغريق نجا وحده من تحطم سفينة، يُكمل بقية حياته على الشاطئ وصوته متشح بصرخات الغرقى. بذل طبيبها النفسي ذاته جهدًا بالغًا ليخرج بها من هذا الفخ العميق الذي سقطت

فيه منذ وفاة الأبوين إلا أن فمها الذي اعتاد أن يكون مقبرةً للكلمات لم يستطع أن يُفصح بسهولة عما رأته في اليقظة كما في النوم.

عانى الطبيب وهو يستوضح منها الأحداث. وأرادت أن تترك له رسالة شكر على كل ما بذله في رحلة علاجها المعقدة لكن يبست الكلمات. ماذا ستكتب أو تقول! إن أبلغ رسالة شكر كان من الممكن أن ترسلها له هي ألا تُقدم على فعلتها تلك مطلقًا. ثم فكرت إنها على الأقل يجب أن تحرره من عبء أي شعور بالمسئولية أو التقصير، فتناولت هاتفها وكتبت:

- إلى د/ عادل عبد القادر

(لقد فعلت كل ما بوسعك وأنا ممتنه أيما امتنان لذلك. تبقى الآن أن أفعل أنا الشيء الوحيد الذي لم يعد في وسعي غيره. سأخرج من هذا الفخ العميق. سأمضي إلى حيث لا عودة على الإطلاق. أتمنى لك حياة طيبة مديدة وشكرًا على كل شيء.)

أَرَّخَت الرسالة لتصل بعد رحيلها بيومين. وجلست في الشرفة تتأمل ظلام بحرها الأخير حتى أبصر النهار فدخلت الغرفة لتعد نفسها للرحيل. فتحت حقيبة الملابس وبدأت في جمع ثيابها ورأت أن تتركها لعمال النظافة وأن تُخلي طرفها من الفندق حتى لا تسبب

أي متاعب للعاملين فيه، ثم تمضي للبحر بهويتها الشخصية فقط ليتم التعرف عليها إن وجدت. وضعت كل شيء حتى ما تبقى معها من مال في حقيبة الملابس - تركت هويتها فقط. وتمددت على السرير تحملق في سقف الغرفة وتنتظر الليل والنهار الأخيرين. غشاها النعاس رغما عنها وحدث ما يحدث دائما.

رأت إنها تقف في شرفة غرفتها في طهم في منتصف الليل ويقف بجوارها شخص غريب لم تدر من هو. كان فارع الطول وكانت هي ذات ال١٧٠ سم تصل لمنتصف جسده فقط. كانا ينظران للسماء فإذا الأجرام السماوية كلها على شكل سفن. كانت تلك السفن مقلوبة رأسًا على عقب، سطحها ناحية الأرض وتسبح في السماء وسط السحاب كأنه بحر. وأمام الشرفة تدور النجوم والكواكب في غبار كوني كثيف. دهشت علا لمنظر الأجرام السماوية وهي تتحرك في الغبار أمام شرفتها تمامًا؛ براقة ولامعة ورايات السفن تلمع في السماء كأنها نوعٌ آخر من النجوم. المشهد كله كان خلابًا وملحميًا وبه من الرهبة ما جعلها عاجزة عن الكلام كليا حتى استيقظت.

الساعة تقترب من الخامسة مساءًا وباب الشرفة مفتوحًا أمام عينيها فخرجت على الفور ونظرت للعالم من حولها. كانت السيارات تمضي مسرعة على كورنيش الإسكندرية كعادتها والطرقات والبحر أمامها فيه

بعض قوارب وسفن. والسماء في الأعلى كما هي والشمس ذهبية توشك على المغيب. كان كل شيء طبيعيًا وفي مكانه تمامًا كما تركته فالتقطت أنفاسها وجلست تتفكر في تفاصيل حلمها الجميل رغم غرابته. ابتسمت وعانقت نفسها ثم انسلت تحت الماء الدافئ. وشعرت بذهنها صافيا وأنها أخيرا قادرة على ترك رسالتين لتايكة وخديجة. فكتبت في البداية لتايكة تقول:

- حبيبتي تايكة..

حينما تظهر هذه الرسالة في بريدك الوارد سأكون قد رحلت. يكاد ينخلع قلبي ويخر خجلا من بين ضلوعي كلما تخيلت وقع الخبر عليكِ. أولا أحبك. ثانيا، سنلتقي مرة أخرى في عالم آخر. أنا واثقة أن رحمة الله ستشملنا وسوف نجتمع من جديد. ثالثا، كان وجودك ظلا ظليلا في قيظ هذه الحياة، شكرًا لكِ يا صغيرتي على كل شيء؛ شكرًا كثيرًا، شكرًا جميلًا. وأخيرًا كما أولًا، أحبك وسأظل أحبك دائمًا حتى بعدما أتلاشى في قرار هذا البحر العميق. (لزوينة بلزاف علا)

ومرة أخرى، أرّخَت الرسالة لتصل بعد رحيلها. ثم حان دور خديجة. لكن غلبها الدمع ولم تستطع كتابة المزيد فتركت كتابتها لقُبيل الرحيل.

خرجت مرة ثانية للشرفة ورأت كيف استحال الأفق لدرجات اللون النحاسي، كان أقرب للون القهوة، يمر فيه السحاب بين بقايا الشمس الذهبية كرغوة الحليب في الفنجان. تأملت خيوط الشمس الأخيرة تنسل تحت ستار الليل وتفكر أن الحياة رغم كل ما فيها من معاناة وألم فيها من الجمال ما يهون الكثير. هذه السماء تُبصر النور كل صباح حتى كأنها معرض فني مفتوح يوميًا للجميع لكن قلما يعيرها أحدٌ انتباها. والليل إذ يرخي ستاره داكن الزرقة يعزف معها لحنًا شجيًا من المتناقضات الخلابة. وتراءى لها أن كافة البشر ينعمون بقدر متساوي من الجمال. السماء وزرقتها اللبنية نهارًا المعتمة مساءًا والأزهار والأشجار والزروع وحتى البحار والأنهار كلها خلقت متاحة لكافة البشر دون تفرقة. الجمال مفروش فرشًا على هذه الأرض لكن البشر يدهسونه بأقدامهم كل يوم. ذاك الحجر الذي يحمله الإنسان في صدره هو ما يحول الحياة بكل ما فيها من نعيم لوجودٍ تعس!

مضى الوقت وخيم الظلام وهدير البحر يهدهد عينيها فسندت رأسها للحائط وغشاها النعاس. رأت نفسها تقف أمام جبل الطور في سيناء تبحث عن خالق الكون وتريد أن تراه. كان الظلام دامسًا وعلى قمة الجبل يقف كيانٌ ما في حلة سوداء. كان طويلا ومخيفًا ومحاطًا بغبار أو هالة رمادية ثقيلة وكثيفة ويصرخ عليها بصوت موحش ومرعب

يقول: "أنا ربكم الأعلى". شعرت بالذعر وارتعش جسدها وكرر عليها "أنا ربكم الأعلى". تثاقلت خطاها وهي تحاول الهرب وتقول "مستحيل أن يكون الخالق هو هذا الظلام." حاولت أن تنطق ببضع آيات من القرآن لكن لسانها كان شبه مشلولا من الذعر وتخرج منه الكلمات بصعوبة. كل شيء كان ذي ثقل بالغ. هذا الكائن المظلم كان كثيفًا هو والهواء من حوله كانوا كعبٍ ثقيل جاسم على صدرها فاستيقظت منتفضة من على الكرسي فارتطم رأسها بالسور فذعرت أكثر واستغرقها الأمر بضع دقائق حتى استوعبت ما يدور ونهضت من الأرض كليًا.

دخلت الغرفة وهي لا تشعر بشيء سوى بلادة شديدة. وبدأت تكتب لخديجة، هطلت الكلمات والدموع كما المطر. فباشرت تكتب:

- أأقول إلى حبيبتي خديجة؟ أم أقول إلى أختي خديجة؟ أم إلى الجميلة خديجة؟ كم سترني وجهك الصبوح كلما عرتني الحياة عُريها الفظّ. أردت أن أودعك وداعًا يليق بكِ - لكنني استحيت أنا أضمك وأقول ألقاكِ على خير وكل ما بداخلي راحل. ثم أنىَّ لي أن أشكرك على كل ما قدمتِ لي، على كل مرة طرقت بابك لأستدين كل ما جمعتيه لأجل الكتب! على كل مرة فرشتِ لي ذراعك لأبكي عليه، على كل مرة أطعمتيني وأنا أتضور جوعًا. أنى لي يا خديجة أن أشكرك على

اللوحات الرائعة التي شرحتِ لي إياها! وحدها قطعك الفنية كانت تهون بعضًا مما يعتريني. هل تعرفين معنى أن يجد المرء وطنًا رائعًا مثلك في متاهات الحياة ! سامحيني أرجوكِ! سامحي هربي! لقد سئمت الملاحم الكبرى. سئمت ما يحدث لي كلما غفت عيناي. سامحيني لكن لا طاقة لي بما يحدث. استغفري لي كثيرًا. وتأكدي أننا سنلتقي مجددًا خارج هذا الزمان وخارج هذا العالم. أنا متأكدة أن رحمة الله التي وسعت كل شيء ستسعني لا محالة. لا أقول لك وداعًا - بل أقول سأغيب لفترة طويلة - وسنلتقي مجددًا في مكانٍ أفضل يا صغيرتي."

انتهت من الرسالة وأرختها ثم وضعت غطاء رأسها ووضعت هويتها في جيبها وأغلقت عليها السحاب لتتأكد أن يتم التعرف عليها عندما يقذفها الماء لأي مكان. أنهت إقامتها في الفندق وخرجت تجر حقيبتها على الرصيف. وبمجرد أن التقت بعمّال النظافة أعطتهم حقيبتها. وتحقق العمال في هيئتها مطولا قبل قبولها. ومضت على كورنيش الإسكندرية بخطوات ثابتة نحو شاطئ النخيل حيث ستدخل في الماء لتخرج من نفسها أخيرًا وللأبد. توشك الساعة أن تدق منتصف الليل وقد خفَّ عدد المارة وسيكون البحر خاليًا تمامًا دون خطر من أن يُنقذها أحد. خطواتها الثابتة وثيابها القطني الفضفاض ووجها المستدير الهادئ مريحين للنظر للدرجة أن من يراها ما كان ليتخيل أن هذه الشابة

تمضي آخر لحظاتها في الحياة، وأن شأنها شأن أي إنسان؛ نادرًا ما يكون كما يبدو عليه.

وعلى هذا النحو- مضت علا وهي في الثلاثين من عمرها في خضم ربيعين، ربيع عمرها وربيع الإسكندرية. تدلف في ظلمة الليل نحو بحرها الأخير. تشعر بالانعتاق مع كل خطوة في غور الماء. ترتجف من برودته فتسقط عنها الأغلال. يحررها الغرق من أسر الكوابيس القحاف. يغمر الماء جسدها فتشعر بخفة من فرَّ لتوه من الأسر. تسمع صوت مرور الموج من فوقها وكل ما في جسدها يتراخى وينعتق. إلا أن هذا الشعور لم يستمر سوى لحظات معدودة. أحست بوخز متتالي في الحنجرة والصدر ففتحت فمها دون إرادة منها لتبلع الماء مالحًا بلعًا دون توقف. فتحت عينيها لكن بلا جدوى أيضًا لا شيء سوى ظلام سائل يغمرها. تصلب جسدها وتشنج تمامًا. تحول الانعتاق الذي غمرها إلى سكاكين تمزق صدرها وظلام سائل يقرص عينيها حتى انتهى الأمر. ماتت علا.

الفصل الثاني

"طهم"

مَن يُحطم جدران تلك الغرفة التي تسمى العالم..؟!

شأنها شأن أي مدينة، كان الناس آفة طهم الكبرى. فالعبرة كما جرت العادة ليست بالمكان بل بالسكان. كانت البلدة حتى مطلع التسعينيات تتمتع بقدر لا بأس به من المساحات المزروعة والحدائق العامة وتحيط بها المزارع والحقول ككافة محافظات الدلتا. إلا أن التوسع العمراني التهم معظم ما هو أخضر وتغوط خوازيق لا حصر لها من الإسمنت. رزحت البلد تحت وطأة الزحف العمراني والتكدس السكاني والتلوث حتى أنها لم تعد تمتلك من طهم القديمة سوى الاسم وبعض الشوارع والأشخاص ومنهم أفراد عائلة سالم نجم الدين. الرجل الذي توفي في صيف العام ٢٠٠٠ إثر حمى شديدة أصابته بعد أن لاكه الاكتئاب لوكا على مدار سنوات. بدأت مأساة السيد سالم وهو في الخامسة والعشرين من عمره حينما كان شابًا يافعًا يعمل في مصلحة الضرائب.

فقد تراءى لأمه السيدة نعمة الله وأبيه السيد أحمد نجم الدين أن سالم في وضع يؤهله للزواج وتأسيس بيت جديد وأسرة تحمل اسمهم. وكعادة معظم عائلات مصر في الثمانينات. بحثت الأم عن الزوجة المناسبة لابنها الذي لا يشوبه أدنى عيب كما يحلو لها أن تراه. كان جميل المُحيّا فارع الطول حسن الخلق كما إنه لا يدخن بل ويصلي أحيانًا في مناسبات عدة. وهو الأمر الذي اعتبرته أمه رائعًا لدرجة إنه يستحق إن

يكون من العشرة المُبشرين بالجنة.

قامت الأم بالبحث والتقصي ووقع الاختيار على شادية ابنة أحد الجيران في الحي. كانت مناسبة للولد حسبما ترى أمه. فهي بيضاء البشرة ملفوفة العود وعيونها الخضراء تجعلها متقدمة جدًا في اختبارات الهيئة التي أعدتها السيدة نعمة الله لكافة بنات الحي. وبالطبع كانت الأخلاق الحميدة في عرف أمهات ذاك الزمان تنحصر في أن الفتاة ليست لعوب ويصفها سكان الحي بأنها "مؤدبة". مَن كان يدري أن هذا الوجه الجميل محض غطاء لقلبٍ متحجر قاسي وروح لا يمسها ورع!

عرضت الأم الفتاة على زوجها السيد أحمد لتحظى بموافقته قبل أن تفتح الموضوع مع سالم الذي دهش في البداية حيث أنه لم يكن يُفكر في الزواج أصلا. إلا أنه مع الوقت اقتنع أنه في أفضل سن للزواج ولن يجد أفضل من امرأة اختارتها له أمه "على الفرازة" على حد تعبيرها.

كانت الفتاة تدعى شادية. تصغره بثلاثة أعوام وشديدة البياض وحصلت على دبلوم زراعة ولم تعمل منذ ذاك الحين أي إنها لن يكون لها دخل مادي مستقل ولن تترك بيتها وتخرج للعمل. كما أن والديها متوسطي الحال ما يعني إنهم سيقبلون بسالم وهم يتضرعون شكرًا لله لأنه موظف ذو راتب ثابت. كان اختيار السيدة نعمة الله لشادية كزوجة ابن لها قائم في مجمله على خليط من النظرة النرجسية للنفس والدونية

للآخرين. وفي غضون شهور معدودة كانت الزيجة قد تمت. فحال سالم في ذاك السن كان يصلح كتعريف لما يُطلق عليه "ابن أمه".

عاش الزوجان في شقة استأجرها والد العريس واختارت أمه موقعها لتكون زوجة ابنها الوحيد وابنها نفسه وكل ما يتعلق بهم تحت نظرها. كانت الشقة فوق شقتها تمامًا حيث سيسهل هذا من مهام المراقبة والتقصي. وبهذا بدأت قصة بيت من أتعس بيوت طهم. أم وأب قررا أن ابنهم الوحيد يجب أن يتزوج فاختارت الأم العروس الأقل شأنًا علميًا وماليًا من وجهة نظرها لكنها الأكثر جمالا بمعايير الرجل الأبيض لتحافظ على نقاء السلالة بشكل تطوري بحت. الآثار المدمرة لتلك الداروينية الاجتماعية سترسم مسار العائلة بأكملها على مدار السنين.

كانت شادية نموذج مثالي، لا كزوجة كما ظنت نعم الله وفقًا لاختبارات الهيئة، بل للكنة "الحرباية" على حد تعبير حماتها. حيث تمتعت بقدر من النعومة الفائقة ظاهريًا في فترة الخطوبة. كانت طبقتها الصوتية تعاني من علة ما بحيث لا يستطيع أي شخص أن يسمعها دون أن يدنو منها. توافق على كل شيء تقوله حماتها التي باتت تناديها بماما فجأة. وهو الأمر الذي انقلب رأسًا على عقب بعد الزواج. حيث كشفت شادية عن أنيابها الضارية بعد أن مضى ثلاث أشهر على زواجها

دون حمل.

قررت السيدة نعمة، بوصفها المدير المالي والإداري لأسرة ابنها الجديدة، أن زوجته تأخرت في الحمل ويجب عرضها على طبيب. وهنا بالضبط ظهرت جبلة شادية الحقيقة حيث تحولت الطبقة الصوتية الهادئة إلى زمجرة كلب مسعور والشابة الناعمة إلى تنين يكاد يلفظ من فمه اللهب والنيران لا الكلمات. ذلك كله كان في صباح يوم لم تشرق له شمس. طرقت نعمة الله الباب لتخبر شادية إنها يجب أن تذهب لطبيب أمراض نساء برفقتها ليتأكدوا أنها لا تعاني أي مشاكل تمنعها من الحمل. لم تتخيل أبدًا إنها ستنزل السلالم المؤدية لشقتها وهي مُلاحقة بوابل من السب. كانت زوجة الابن محترفة في تكْيّل الشتائم لدرجة تؤهلها لنهائيات كأس العالم في الردح.

أحمر وجه شادية من الغيظ حينما رأت حماتها تصدر القرار وكأنها ولية أمرها وربة منزلها. هي التي ظنت إن ولاية حماتها سوف تنتهي بعد الزواج وجدت أنها تزداد تسلطًا وتدير كل كبيرة وصغيرة في بيت ابنها ويكأن زوجة الابن تُجلب للمنزل بغرض التلقيح والخدمة فقط. فما كان من شادية إلا أن "فرشت الملاءة" لحماتها التي اكتشفت لكن بعد فوات الأوان أنها أساءت الاختيار. انفجرت الكنة في وجه حماتها بأعلى صوت معبرة بأقذر الألفاظ عن وجهة نظرها التي كان مُفادها أن

السيدة نعمة الله "مرة لايدة" وكانت تلك المفردات الأقل خدشًا للحياة في المعركة التي دارت وانتهت بطرد نعمة الله من بيت ابنها الذي ظنت إنه امتدادٌ لبيتها لا بيت مستقل عنه.

وجد سالم أمه تنتظره على الباب لتشكو له زوجته وهو عائد من العمل. وصُدم من كلام أمه التي أقسمت له أن زوجته نعتتها بأسوأ الألفاظ لمجرد إنها كانت تسألها عن أخبار الحمل. فغضب ورمح رمحًا للطابق العلوي ليعاقب زوجته قليلة الأدب إلا أنه تلجلج أمامها حيث وجد قصتها مختلفة عن قصة أمه. فأمه لم تكن تسأل عن أخبار الحمل بل كانت تأمر شادية بالذهاب معها للطبيب وتتكلم بنبرة سلطوية لم تقبلها شادية التي أقسمت إن نعمة الله لن تطأ هذا البيت مرة أخرى. وبالرغم من أن سالم كان يرى خطأ زوجته أكبر من خطأ أمه، وأن ألفاظ زوجته لا مبرر لها، حتى لو كانت أمه تأمر زوجته بالذهاب للطبيب في ثالث شهر من الزواج لعدم حدوث حمل. وأن ابنها بطبيعة الحال لا يمكن أن تشوبه شائبة، إلا إنه رأى قرار شادية بألا تدخل أمه البيت أريح للجميع خاصة إنها تقطن أسفل منه ويستطيع المرور بها كل يوم مرارًا وتكرارًا دون أن يقترب البنزين من النار.

وهكذا مضى الحال حتى أصيبت نعمة الله بجلطة دماغية بعد أن حملت شادية في وائل في الشهر الخامس من الزواج. لم تدر نعمة الله

أنها ستصير جدة إلا بعدما تكوّرت بطن شادية. هل خبأ سالم خبر حمل زوجته عن أمه؟ نعم، لقد فعل. وظنت الأم أن ابنها قد انفلت لجامه من بين يديها وصار تابعًا لزوجته التي تصفها دائمًا بعبارة: "بنت الكلب الحرباية شادية". إلا أن سالم لم يخفي الخبر عن أمه لأنه صار تابعًا لزوجته، بل أخفى الخبر عن الجميع لأن الحمل كان غير ثابت في البداية وخشى أن تفقد زوجته الجنين وستحزن أمه أيما حزن على ذلك. فقرر أن يكتم الأمر حتى تدب الروح في الجنين. ومع ذلك، اعتبرت أمه أن عدم معرفتها بكافة التفاصيل من البداية للنهاية ذنبًا كبيرًا اقترفه سالم بإيعاز من زوجته الحرباءة. كذلك اعتبرت شادية عدم معرفة حماتها انتصارًا كبيرًا لها كربة للبيت الذي صارت الآمرة الناهية فيه. وفي غضون شهور قليلة أتى وائل للحياة في شتاء العام ١٩٨٨، وقبل أن يتم ربيعه الأول كانت جدته قد رحلت.

بقى السيد أحمد نجم الدين بين جدران منزله وحيدًا حيث رفضت شادية رعايته كليًا. فاستأجر له سالم خادمة تدعى أم روحية لتعتني به. ومضت أربع سنون عاش فيها الأب منعزلا تمام الانعزال عن شادية والدور العلوي برمته. ومع ذلك كانت الخلافات تدب بين زوجة الابن وحماها من آن لآخر. كانت أم روحية تتقاضى عشر جنيهات مقابل العناية بشقة الحمى لكن شادية كانت ترى أن هذا الأجر كافي

ووافي لتنظيف شقتها وشقة حماها وكنس ومسح السلالم وتحضير الطعام وغسيل الأطباق وكيّ الثياب وحتى قضاء احتياجات البيت من السوق. وقد بلغ بها الأمر في إحدى المرات أن تشاجرت مع أم روحية لأنها رفضت مسح السلالم مقابل ثلاث جنيهات.

نادت شادية على أم روحية لتصعد لها يومذاك لتقول لها: "بقولك ايه يا ولية أنتي امسحي السلم من قدام باب شقتي للشارع وهخلي سالم يديكي تلاتة جنية زيادة".

أشاحت المرأة بوجهها عن شادية ونزلت السلم وهي تقول: "شوفي حد غيري يمسحه بتلاتة جنية يا أم وائل."

وقف السيد أحمد نجم الدين على عتبة بابه حانقًا وهو يسمع زوجة ابنه تشتم المرأة المسكينة قائلة: "جرى ايه يا مرة أنتي نازلة تجري على السلم ياختي كأني بقولك اعمليه ببلاش – اشمعنا شقة الراجل ده اللي بتنضفيها بعشرة جنية – ولا زمانك بتاخدي حاجة تانية غير الفلوس منه – معدتش غير حتت خدامة زيك اللي هتقولي لا – الله أعلم ايه اللي بينك وبينه مخليكي تنطي له كده كل شوية بحجة تنضيف البيت".

يومذاك، بلغ الغضب بالسيد أحمد نجم الدين أن صعد السلالم التي لم يطأها منذ أربع سنوات ووقف أمام باب شقة ابنه ونادى على شادية

التي ظهرت من خلف الباب بوجه اختلطت فيه الدهشة بالتجهم. وبصوت عال ووجه يزمجر قالت لحماها: "خير إن شاء الله لا تكون جاي تدافع عنها؟"

حملق الرجل النظر فيها ولم تمض سوى ثوان معدودة وهو ينظر لها باحتقار قبل أن يرفع يده ويصفعها قدر ما أُوتي من قوة. شقَّ قرطها أذنها وارتطم بالأرض وسالت منها الدماء. كان صوت الصفعة مدويًا لدرجة أن الخادمة هرولت للأعلى وقبل أن تصل للباب سمعت صوت ضربة أخرى. ثم وجدت السيد أحمد فجأة أمام قدميها على المصطبة الفاصلة بين السلالم. كان الدم يسيل من رأسه وفمه وساقه ملتوي كليا ويتأوه بعلو صوته ويشد بيديه على بطنه فصعقت من هول المنظر ظلت تصرخ بشكل هيستيري حتى اجتمع أهل الشارع وحملوه للمستشفى على وجه السرعة.

حرر الرجل محضرًا ضد زوجة ابنه التي ضربته بساقها في بطنه فانقلب على السلالم. الكنة بدورها كانت قد حررت محضرًا بأن حماها كان قد تهجم عليها في شقتها وصفعها عدة صفعات حتى انكسر قرطها وسال الدم من أذنها لأنه كان يريد مواقعتها غصبًا عنها وهي بمفردها وزوجها غائبًا في العمل. في ذاك اليوم بالذات، كانت قصة علا سالم أحمد نجم الدين قد بدأت بالرغم من أن علا نفسها لم تكن قد أتت

للحياة. رفضت شادية التنازل عن المحضر قبل أن يتنازل حماها عن محضره. وبالفعل رضخ سالم وأباها أمام هول الفضيحة التي تهددهم بها شادية وهي محاولة الاغتصاب.

كان سالم يدرك تمام الإدراك أن أبيه لم يتحرش بزوجته حتى قبل أن تخبره الخادمة بحقيقة ما حصل. ومع ذلك، لم تكلف شادية نفسها عناء الكذب أصلا. بل أخبرت سالم صراحة إن والده سيسجن بتهمة لم يرتكبها لو لم يتنازل عن محضره في حقها ووقف سالم أمامها متجمدًا من شدة الصدمة. صحيح إنه رأى منها كافة النواقص على مدار خمس سنوات هي مدة هذا الزواج التعيس إلا أنه لا يزال يدهش لحجم العتو الذي تقدم عليه زوجته مع كل حادثة جديدة تقع بينهم. لم ينطق سالم بحرف وهو يرى شادية تقف أمامه وصوتها يكاد يصل للقاصي قبل الداني وتهدده بأن محضر أبيه إن لم يُسحب اليوم ستخبر الحي بأكمله بأنه حاول اغتصابها. ظل ينظر لها وبعد وهلة نطق بعبارة واحدة فقط: "أنتِ طالق."

اهتزت شادية كمن تلقى صفعة أخرى ثم جلست وقالت له: "في ستين داهية." فانصرف سالم إلى المستشفى التي حجزت والده. وحين وصل لغرفته جلس يبكي أمام سريره كطفل والرجل في حلة كاملة من الجبس لا يستطيع أن يتحرك فقط يُقّلب عينيه يمينًا ويسارًا، ثم تمالك

نفسه وقال لسالم: "اسمعني جيدًا يا ولدي. هل سألت نفسك يومًا لماذا كنت أتغيب عن البيت لفترات طويلة؟

نظر له سالم ودهش أن هذا ما يتحدث عنه والده وليس المعركة التي دارت رحاها مع شادية، تمالك نفسه وأجاب: "لا أعرف، ربما العمل كما كانت أمي تقول!"

أومأ والده برأسه نافيًا ثم قال: "كنت أتغيب قدر الإمكان عن ذاك الزواج التعيس الذي جمعني بأمك. أنت الآن كبيرٌ بما يكفي ويجب أن تعرف ما كان يحدث. كانت أمك عاتية لا يلين قلبها لأحد. كل ما تعرفه عن الزواج أنها يجب أن تكون سيدة المنزل وربته المطلعة على كل التفاصيل والمتحكمة في كل شيء. لم تستطع أمك أن تفهمني يومًا بل لم تراني قط. كنت دائمًا بالنسبة لها الزوج الذي يغيب طوال اليوم في شادر الخشب ويعود متأخرًا ليأكل وينام ويرحل في الصباح. لم تطلع أبدًا على ما في نفسي. كان زواجًا تقليديًا مثل زواجك وبعد أول عام رزقنا بك. كنت من بعد ولادتك قد تيقنت بالفعل أنها لا تنظر لي سوى كآلة تضر المال للبيت والحيوانات المنوية للإنجاب. كرهت زواجي بها وندمت عليه. ومع ذلك، كنت حين أراك يلين قلبي لكافة الناس. كانت عيونك هي الحائط الوحيد الذي استند عليه في ذاك المنزل. وخشيت أن يمسك أدنى أذى منها أو مني. رأيتك تكبر أمامي يومًا بعد يوم

وهي تعتني بك كما هو منوطًا بأي أم. تقبلت الواقع وارتحت لراحتك وسعدت لسعادتك. مضت السنون ولم ننجب غيرك رغم أن أمك حاولت جاهدة مرارًا وتكرارًا. وفي سبيل ذلك زارت عشرات الأطباء والدجالين والسحرة. جربت كل شيء لكن بلا جدوى. والحقيقة أن السبب في إننا لم ننجب غيرك هو أنني قمت بجراحة بسيطة، لقد قطعت القناة الدافقة، لأتأكد أنني لن أنجب منها أي أطفال مرة أخرى. كنت أنت كافيًا وزيادة بالنسبة لي. لقد أخطأت مرتين يا بني. المرة الأولى حينما تزوجت أمك بدون تريث ولا تمهل فقط لأن كل من حولي كانوا يقولون آن الأوان. والمرة الثانية حينما تقبلت اختيار أمك زوجة لك فقط لأن كل من حولنا كانوا يقولون آن الأوان مرة أخرى. كنت أعلم أن الزواج لا يشترط السن بل يشترط النضج والحب والحكمة. ومع ذلك وقفت أنظر وأمك تختار وتقنعك وتزوجك عاجزًا لا أدري كيف أو لماذا. وها هي شادية. أفضل ما استطاعت أمك اختياره كان بهذه البشاعة! نسخة أسوأ من نعمة الله تعلو وتطيح في البيت، لا تحب أحدًا ولا تشفق على أحدًا."

ارتفع نشيج سالم وهو يبكي ثم انكب على يد أبيه قائلا: "كفى يا أبي أرجوك، أرجوك كفى. لقد صرت أكره كل شيء منذ تزوجت شادية. إنها في صراع دائم مع الجميع لدرجة أنني لم أعد أتذكر أي شخص

من معارفنا لم تتسبب له في مشكلة. والآن تخبرني أن أمي نفسها كانت كذلك. لقد صرت أكره النساء جميعًا."

قبض أبيه على يده وهو يأن قائلا: "دعني أُكمل. أقول هذا لك الآن لكي تفعل ما عجزت أنا عن فعله. لقد عشت حياة قاحلة مع أمك. وها أنا على فراش الموت في أواخر العمر أنظر للماضي بأسره فلا أرى غير ظلامًا مستشريًا في نفسي. كيف سمحت لهذه الغلطة أن تستمر لعقود! وكيف تركت الغلطة الأولى تختار لك فتقع الغلطة الثانية؟ اسمعني يا سالم، أنت الآن في أوائل الثلاثينيات، لا تزال شابًا يافعًا. تزوج يا ولدي واترك شادية. إنك لا تدري معنى أن ينظر المرء لحياته فلا يجد غير عفاشة على هيئة بشر قضوا عليه وعلى عمره. لا تدع شادية تسلبك أهم ما تملك يا بني، لا تدعها تسرق عمرك."

عجز سالم عن الحديث وقد أفحمه البكاء. لم يعرف ماذا يقول، ومر حينٌ حتى تمالك لسانه وقال: "إنها تهددني بأنها ستتهمك...."

مد الأب أطراف أصابعه من حلة الجبس وربت على يد ابنه وقال: "أعرف أعرف، الشيخ محمد عرفه أخبرني بكل شيء. لا تقلق سأسحب المحضر. والآن عدني بشيء يا ولدي. عدني بأنك لن تدع عمرك يذهب هباءًا وأنت مسجونًا مع طاغية لا تراعي فيك حق الله. ارحل يا ولدي قبل أن يصير الرحيل معقدًا ومستحيلا. ارحل سواء كان هذا الطاغية

زوجة أو قريب أو رفيق.

عاد سالم للبيت في ذاك اليوم وهو عازم على إنهاء هذا الكابوس الذي يسمى زواجه. كان الشيء الوحيد الذي يفكر فيه كيف يخرج بأقل خسائر ممكنة لطفله الذي لم يبلغ الحلم. وحين وصل لم يصعد لشقته بل قضى الليلة في شقة أبيه. وفي الصباح التالي والذي يليه والذي يليه ولمدة خمس أيام كان يقضي معظم الوقت مع أبيه قبل أن توافيه المنية في أقل من أسبوع على الحادث. دفن سالم والده وباشر في إجراءات الطلاق على الفور. إلا أن شادية كانت أعتى من أن يتم تطليقها بسهولة. فقد هددته صراحة قائلة: "الشقة من حق الزوجة وأنا الحاضنة - هاخود شقة أبوك وأمك التمليك اللي تحت دي - وهاخود نفقة شهرية أعلى من مرتبك. عارف ازاي؟ هجيب ورق يثبت إن فوايد ورثك من أبوك ومرتبك أكتر من ألف جنية وابقى قابلني لو شفت ضافر ابنك أو اللي جاي في السكة."

صعق سالم بعدما سمع الخبر. وحزن أيما حزن لحمل شادية التي رغم كل ما حدث لم يرف لها جفن ولم تشعر بتأنيب الضمير نحو موت حماها بسببها. ومع ذلك، كان سالم رغم طباعه الهادئة قد كره شادية لدرجة يستحيل معها ألا ينفصل عنها مهما كلف الأمر. فقرر أن يصفعها بالباطل مثلما صفعته وتركها كالمُعلّقة. يدفع إيجار شقته ويترك

مبلغ كافي كنفقة للبيت، لكنه انقطع كليا عن الدور العلوي وظل مقيماً في شقة والديه حتى أتى للوجود رضيعة صغيرة سماها علا على أمل أن تكون أعلى من كل هذا الهراء الدائر.

ظنَّ سالم أن شادية قد تلين بعد أن صارت أمًا لطفلين وتقبل بطلاق عادل لكن هيهات. وجدت راحتها أكثر في الوضع الجديد. فالمال يصل لها بانتظام كل شهر وتعيش مع ابنها والرضيعة بمفردهم. انقطاع زوجها نفسه عنها لم يسبب لها أي أزمة فقد اعتبرته بمثابة "كلب حراسة" يعيش أسفل منها يوفر الحماية كما يوفر المال. وظل الوضع هكذا حتى ظهرت شابة أمام مكتبه في مصلحة الضرائب. ترتدي تنورة باللون الكحلي وقميص وردي ومعطف بنفس لون التنورة، رشيقة القوام خمرية البشرة مليحة الملامح ولها صوت يهدل كالحمام. كان شعرها الأسود منسدلا على ظهرها ومتناثرًا على كتفيها وتضع في شعرها طوق بلون القميص وبه فراشة. رفع سالم رأسه ورآها أمامه تسأله كيف تفتح سجل ضريبي لمرسم فتحته من شهور معدودة. وبدل من أن يجيب على سؤالها وجد نفسه يقول: "هذه أول مرة أرى فراشة ترتدي فراشة؟"

نظرت الشابة للأرض واحمرت وجنتاها وتلعثمت ثم خرجت مسرعة من الغرفة. انتفض سالم من مقعده وركض خلفها لكن بمجرد أن خرج من الغرفة لم يجد لها أي أثر ولا في الممر ولا على السلالم سأل

عنها العمال إلا أن الجميع أكدوا أنهم لم يروا امرأة بتلك المواصفات أساسًا. فعاد لمكتبه وهو عاجز عن فهم ما حدث للتو. ومضت الأيام دون أن يراها ثانية حتى وُقِر في قرارة نفسه إنه كان يتخيل أو ربما جُن. ومع ذلك ظَل طيف المرأة العابرة التي كسرت حاجز كره للنساء يتردد في أحلامه لمدة شهر. يحلم مرارًا وتكرارًا بأنها تقف ثانية أمام مكتبه في مصلحة الضرائب وتعيد عليه نفس السؤال عن كيفية فتح سجل ضريبي لمرسم فتحته منذ شهور لكنه لا يقول لها أن هذه أول مرة يرى فراشة ترتدي فراشة. بل يتوسل إليها ألا تذهب. ويستيقظ من نومه وهو منفرج السريرة. يرتدي كل يوم أفضل ثيابه على أمل أن تعود الفراشة لمكتبه يومًا ما. وقد كان. عادت صفية عبد اللطيف الحافي ذات الثلاثين ربيعًا لتقف أمام مكتبه مرة أخرى وفي يدها ملف وقبل أن تنطق بشيء، وقف سالم ونظر لها مباشرة وقال لها: "تتجوزيني!"

أغلقت صفية عينيها وتنهدت كمن يتنفس الصعداء. واستدارت وخرجت مسرعة من المكتب لكن هذه المرة لم يركض خلفها. بل جلس مدهوشًا من نفسه وما باح به لتوه وحين عاد لمنزله ندم على ما قاله. وفكر في نفسه أن هذا السحر الغارق فيه لا بد أن سببه الوحدة والعزلة التي يعيشها منذ أكثر من عام. أي زواج هذا الذي قد يُقدم عليه وهو عالق في طلاقه من امرأة له منها طفلين وتمنعه من رؤيتهم. وعزم أن

يعتذر من تلك الشابة إن عادت لمكتبه وألا يفكر في الزواج قبل أن ينهي زواجه من شادية.

ومضى شهرٌ آخر لم تظهر فيه صفية في مكتبه لكنها ظهرت كثيرًا في أحلامه. ينام فيراها تجلس بجانبه على تلة مُطلة على البحر ينحدر من تحتهم سهل تملأه المروج؛ وحين يسألها أين نحن!؟ تربت بيدها على كتفه وتضمه نحوها وتقول في قلبي. يبكي حين يستيقظ كطفلٍ صغير؛ نفس الحلم يتكرر لمدة شهر حتى ظهرت أمامه مرة أخرى. وقبل أن ينطق بأي كلام وجد رجلا أشيب الرأس يقول له: "دي بنتي وجت هنا مرتين عشان تفتح سجل ضريبي وحضرتك ضايقتها. هتفتح لها سجل بالأدب ولا نقدم فيك شكوى."

ظل سالم صامتًا وهو ينظر لها ولوالدها ثم قال: "أرجوك جوزني بنتك. أنا عايز اتجوزها."

دهش الأب وتوردت وجنتي صفية ونظرت للأرض ثم خرجت من الغرفة وجلست أمامهم في الممر. طلب سالم من والدها أن يستريح وتحدث معه صراحة: "أنا متجوز وعندي طفلين - وائل وعلا. لكن منفصل في المعيشة عن زوجتي بسبب شروط الطلاق اللي فرضتها. تقدر تتأكد من صدق كلامي. أنا عايش في حي التلة هنا في طهم وأهل الحي كلهم يعرفون قصة زواجي. عندي شقة تمليك ورثتها عن والدي

سأتركها لزوجتي الأولى وأطفالي حتى بعد الطلاق - بس هأجر شقة لبنتك. ومش مهم إن كان سبق لها الزواج أم لا. حتى لو كان لديها أطفال أنا راضي بها على أي حال. أنا مستور ماديًا الحمد لله وهوفر لها حياة كريمة. أرجوك جوزني بنتك."

دهش السيد عبد اللطيف وهو يرى شابًا في ريعان شبابه يتوسل له أن يزوجه ابنته وكل ما في عينيه يركع مستعطفًا. لم يعرف ماذا يقول له وساد صمتٌ طويلٌ بينهم شقه الرجل قائلا: "اسمع يا بني، حتى لو كنت صادق في كل كلامك وأن زواجك فاشل وتعيس وعايز تتجوز بنتي وحتضحي عشانها بالغالي والنفيس! ليه أقبل أنا لبنتي بالوضع المعقد ده. حتى لو كنت أنت المظلوم وزوجتك هي الظالمة ده لا يعفيك من المسئولية. لأن إذا كانت اختياراتك سيئة للدرجة دي ليه أسيب أنا بنتي بين ايدين شخص لا يحسن الاختيار. وعمومًا حعرض عليها الأمر، لكن بالنسبة لي طلبك مرفوض وأنا متأكد إنها هي كمان حترفض. وردي هيوصلك في غضون أيام على أي حال."

خرج السيد عبد اللطيف من الغرفة والتقط يد ابنته وهو يمر وذهبا كلاهما. إلا أن الابنة استدارت وابتسمت لسالم على استحياء قبل أن تختفي كليًا عن النظر. ظل سالم يتقلب في الأيام التالية على حر الجمر ويدعو الله ليل نهار وهو ينتظر أن يرد له السيد عبد اللطيف خبرًا. مضى

أسبوعان مرا كأنهما دهران. يحلم بصفية ليلا ويبكي نهارًا. حتى جاءه السيد عبد اللطيف في مكتبه في أحد الأيام وترك له العنوان وأخبره أنهم ينتظرونه يوم الخميس بعد آذن المغرب. لم يفكر سالم في شيء من الثلاثاء للخميس سوى وجنتي صفية التي توردت خجلا والفراشة المحظوظة التي تجلس على رأسها. وحين أتى الخميس عرج على إمام المسجد المجاور له، الشيخ محمد عرفه. كان الرجل صديقًا لوالده وصيته الطيب وسمعته الحسنة تتردد أصداءهم في كافة محافظات مصر وليس في طهم فقط. ورأى أن حضور الشيخ محمد سيذيب الجليد ويطمئن قلق والدي العروس. وبالفعل عرض سالم الأمر عليه واستشاره واستأذنه في أن يأتي معه. فرحّب بالأمر خاصة أن السيد أحمد أوصى سالم أن يُنهي زواجه بشادية في سويعاته الأخيرة.

استراح السيد عبد اللطيف كثيرًا لوجود الشيخ محمد مع سالم خاصة بعد أن شرح له تعقيدات وضع سالم وما عانى منه وكيف أن زوجته الأولى كانت سببًا في وفاة أبيه. فصارحه السيد عبد اللطيف على انفراد أن وضع سالم مُقلق وأن الشيء الوحيد الذي دفعه لاستقباله هو أن ابنته استخارت الله وشعرت بالقبول حتى بعدما عرفت إنه متزوج، وأنه ما كان ليوافق ابنته في قرارها لو لم تكن تجاوزت الثلاثين من عمرها.

خرجت صفية وهي تحمل صينية من المشروبات للضيوف يومذاك.

فقدمت للشيخ محمد ثم أبيها وحين وصلت للعريس رفعت بصرها له على استحياء وقالت له: "أتفضل" فرد عليها متلعثماً "بكشرًا" عوضًا عن "شكرًا".

ابتسم الشيخ محمد ملء فاه وهو ينظر لسالم الذي يضطرب فيه كل شيء أمام صفية. ودارت رحى الحديث وأنس السيد عبد اللطيف لحديث سالم وكلامه. وأسدل حضور الشيخ محمد ستار من الطمأنينة والبركة على الجميع. وبدأ سالم في تقديم عرضه أمام حماه المستقبلي قائلا: "سوف أقدم شبكة في حدود خمسمائة جنية. وسأدفع مهر ألف جنية لها ولا أريد منهم مليم في الزواج. هذا المال لها لشراء ما تحتاجه. وسأشتري عفش البيت كاملا. أريدها بفستان زفافها فقط."

كانت صفية جالسة بين والديها شاخصة ببصرها للأرض من الحياء. وأمها تنظر لها وتبتسم حينًا وتمسح بيدها على شعر ابنتها حينًا. والوالد يربت بيده على كتفها وهو مطمئن القلب ومستبشر السجية خاصة بعدما أخبرهم سالم إنه سيقوم باستئجار شقة للعروس بعيدة كليًا عن التلة. وسيكون عش الزوجية في حي الصالحية المجاور لهم. وعلى هذا النحو مضى سالم وصفية في التجهيز للزواج الذي أقيم في صيف العام ١٩٩٠ على عجل.

انتقلت الفتاة للبيت الجديد الذي كان شديد الأناقة والبساطة

لدرجة أن ما مِن أحد دخله إلا وتمنى قضاء بقية حياته فيه. هذا البيت الصغير المكون من غرفتين وقاعة استقبال ومطبخ وحمام، لا يوجد فيه أدنى أثر لشيء باهظ الثمن. ومع ذلك كان كل شيء فيه غير تقليدي على الإطلاق. دهنت صفية قاعة الاستقبال باللون البيج الفاتح وقسمتها بسياج خشبي أبيض ورسمت عليه زهور زرقاء وصفراء صغيرة. وعلقت في السقف من فوقه أصيص زرع يتدلى منه فروع خضراء أشبه بالإكليل. وفي القسم الأقرب للمطبخ وضعت طاولة مربعة باللون الأبيض، ومن حولها أربع مقاعد خشبية بسيطة، يتوسطها مزهرية شفافة بيضاء ممتلئة بزهور حية. وعلى الجدار المقابل للطاولة وضعت أربع رسومات مائية، اثنان يعلوان اثنان، في إطارات زرقاء لنباتات نادرة. ومن أسفلهم خزانة أطباق بيضاء ورسمت عليها زهور صغيرة زرقاء فصار شبيهًا بالسياج. كان خيالها فنيًا بحق وما إن تلمس يدها شيئًا حتى يصير مليحًا. استعاضت عن المواسير التي تُعلق عليها الستائر بفروع شجر صلبة عالجتها بمادة مقوية. وما إن علقت ستائرها البيضاء على الفروع البنية حتى صار الجدار نفسه سعيدًا حتى كأنه كاد يبتسم. على طرفي كافة فروع الشجر وضعت باقات صغيرة من أعشاش الطيور المنحوتة من السيراميك لمنع انزلاق الستائر. وفي داخل كل عش تجلس أم تطعم صغارها من الطيور. وفي الزوايا بين الجدران

وضعت نباتات ظل من كافة الأنواع. أما القسم الثاني من القاعة، وهو الأقرب للباب، وضعت أريكة زرقاء بعرض حائط كامل ومن فوقها لوحة كبيرة لكلود مونيه أعادت رسمها هي وأطرتها بإطار ذهبي أنيق. كما وضعت وسائد باللونين الأبيض والرملي وغطاء صغير من الفرو الأبيض الناعم. أمام الأريكة وضعت طاولة بنية صغيرة عليها بضع كتب عن الفن والفلسفة بجانب مزهرية صغيرة باللون الذهبي ومن وراء الطاولة كرسيان تم تنجيدهم بقماش باللون الرملي يتخلله زهور زرقاء وبيضاء. وعلى الجدار المقابل للوحة مونيه شيدت مكتبة بيضاء من سبع رفوف وضعت فيها كل ما قرأته من الكتب مع بعض النباتات المنزلية والتحف. كانت القاعة لا تحتوي على أي قطع أثاث فارهة لكن كان كل ما فيها جميلا وبسيطًا كجنة صغيرة تغرد فيها طيور الزينة وتسبح الأسماك الملونة في بحرها الصغير. وكما صارت القاعة صارت الغرف. فقد اختارت لغرفة نومها أثاثًا بسيطًا من خشب متوسط الجودة بعدما علمت أن سالم يواجه صعوبات مادية وظل مصرًا ألا تدفع هي أو أسرتها أي شيء لإتمام الزواج. كانت الغرفة عبارة عن سرير أبيض متوسط الحجم وخزانة ثياب ومرآة وطاولة سرير جانبية. وكعادتها إذا وضعت يدها على أي شيء تحولت الغرفة لقطعة فنية.

أحاطت المرآة بنباتات زينة وعلقت فوق السرير رسمة مائية كبيرة

لها تجلس على تلة مطلة على البحر وتضم سالم تحت ذراعها ورأسه مطروحًا لها تمامًا كما أخبرها عن حلمه الغريب. جعلت للسرير وسادة صغيرة إضافية على شكل زهرة، وشأن الستار شأن بقية الستائر وبعض الإضاءة الهادئة وكفى . أما الغرفة الأخيرة فقد وضعت فيها سريرًا صغيرًا باللون الأبيض ودهنت الجدران باللون الوردي ورسمت عليها سُحب صغيرة ونجوم فضية، وبالطبع الكثير والكثير من النباتات. واتفقا كلاهما على أن يتمَّا فرش الغرفة بعد أن يرزقا بطفل. جرت الأمور على خير حال وتم انجاز البيت على أتم وجه.

استلقى سالم على أرضيته قُبيل الزفاف بيومين. ينظر لكل ما حوله من بساطة وجمال وكيف أن فراشته الجميلة حاضرة في كافة تفاصيل البيت. بل لا يكاد يوجد أي قطعة في البيت تخلو من لمساتها الفنية الرقيقة. ها قد صار كل شيء جاهزًا. وها هو للمرة الأولى يشعر أن له عشًا سعيدًا. مر بعد ذلك على منزل صفية لكتب الكتاب. وحاول أن يتخيل فستان الزفاف الذي تخيطه لنفسها سرًا منذ أن تمت الخطبة لكن عجز وغلبه النعاس وهو مستلقي أرضًا. ورأى نفس الحلم القديم يراوده. يجلس في أحضان صفية على تلة مطلة على البحر ومن أسفل منهم المروج تراقص الهواء العليل. وينتهي الحلم بأن تخبره إنه في قلبها. استيقظ من نومه فرحًا وركض لمنزلها بعد أن عرج على المأذون وشهد على عقد القران الشيخ

محمد وخال العروس. كانت حفلة بسيطة. زينت صفية البيت بفروع نور بيضاء صغيرة وبعض الورود والحلويات والمخبوزات التي أعدتها الأم ودعت صديقتها الوحيدة ليلى. جلس المدعوون الذين لا يتجاوز عددهم ستة أشخاص إلى جانب أسرة صفية وسالم والشيخ محمد في أجواء عائلية هادئة يحتفلون بعقد قران العروسين. وما هي إلا ساعة حتى انصرف الجميع وللمرة الأولى ينفرد سالم بصفية كزوجين.....

وصل سالم يوم الزفاف لبيتها في سيارة أحد أصدقاءه ليقلّها لعشهم السعيد. لم ترغب صفية في إقامة حفل زفاف وفضلت عوضًا عن ذلك التوجه لاستديو تصوير والتقاط بعض الصور ثم الانتقال في أجواء احتفالية بسيطة لبيتهم الجديد. ارتدت الفستان الذي خاطته بيدها ووضعت بعض مستحضرات التجميل وبرفقه ليلى وأبيها وأمها خرجت من غرفتها لزوجها الذي ينتظر في الردهة. وقف سالم عندما رآها مدهوشًا. لم يكُ شيٌ مما فيها أرضيًا أو ينتمي لهذا الكوكب. كانت أشبه بملاك فرَّ لتوّه من الجنة ليتزوج منه. الفستان الذي خاطته من الستان الأبيض ينسدل مخمليًا عليها كحلم جميل. كان بهيًا وغريرًا لأنها هي مَن ترتديه. وظن سالم أن الفستان يعرٍف بالطبع أن صفية هي مَن ترتديه لذلك ازداد بريقًا بها. كان طويلا ويصل لكعب القدم ويغطي نصف الذراعين؛ ومحبوك على الكتفين حتى الوسط برباط من قماش

أبيض سميك ومعقود للخلف على شكل فيونكة، ومنفوش بعد ذلك كفساتين الأميرات. خاطت فيه بعض الزهور الصغيرة من نفس قماش الفيونكة الأبيض. وشعرها هو شعرها لم تبدل فيه شيئًا منذ رآها في اليوم الأول يهدر على ظهرها وكتفيها كموج البحر - وطرحة من الشيفون المختلط بالدانتيل مُثبتة بإكليل من الزهور على رأسها. لم يستطع سالم أن ينطق بأي شيء أمامها. ذاب غريرُ طلعِها بقلبِه المنين. وتوتر وهو يرفع عن وجهها الطرحة، كان مُشرقًا وضّاءًا به من السكينة ما يكفي لتطبيب جراح عمره كله. وحدث ما يحدث في أي زفاف؛ الكثير من الأحضان والزغاريد والدموع.

تمر الأيام ويبهت وهج البدايات السعيدة ويجد الزوجان أنفسهم أمام روتينية الأيام والأحداث. تعصف بهم الخلافات أحيانًا والجدل العقيم أحيانًا أُخر، لكن ما كان هذا ليفسد صفو الحياة مع صفية. فبعد الوصول للبيت في ذاك اليوم لم يخرج منه سالم مرة أخرى. لم يخرج إلا للقبر. لقد انقضت عليه ست سنوات في هذا البيت لا يعرف كيف بدأت أو كيف انتهت. لقد شك أحيانًا أن صفية نفسها كانت حلمًا وانتهى. يذهب كل يوم للعمل بالطبع ويخرج من البيت لكن البيت لم يكن يخرج منه. يذهب ويأتي ويسافر أحيانًا ويعود وتمر الأيام والأسابيع والشهور وهو كما هي يحملان المنزل بين ضلوعهم أينما ذهبوا. وجد سالم في جنته

الصغيرة تلك ما لم يجده في أي مكان آخر طوال حياته.

كان هناك أمرًا آخرًا فريدًا في هذا البيت. كانت هي تسكنه، فلم يعد كأي بيت. كانت الجدران بل وكافة الجمادات مشرقة دائمًا، فكيف هي الزهور الحية والأسماك. وإذا كانت الزهور والأسماك تعيش في سعادة غامرة فكيف حال البشر؟ لم تكن تلك المرأة الثلاثينية الأجمل بين النساء. كما لم تكن الأكثر ثراءٍ أو موهبة أو علم، بالرغم من أنها كانت تتمتع بقسطٍ وافٍ من كل تلك الصفات، لكن كان لديها شيئًا آخر هو ما يجعلها غير عادية. كان لديها قلب أم حنون. كانت أمًا لكل ما حولها من مخلوقات. كانت تعامل النباتات برفق لأنها تظن أن كافة الكائنات الحية لها روح حتى لو لم يكن لها لسان تنطق به. كانت تحب تنظيف البيت وتعطيره لأن روح المكان تكون خفيفة وطيبة إذا كان نظيفًا. وتميل للإضاءة الخافتة ليلا حتى لا تنزعج الأسماك والطيور. تبتسم لكافة المخلوقات الحية وتمسح بيدها على رأس الصغار والكبار على حد سواء. تعانق الجميع بسبب وبدون سبب. تتبرع بمعظم ما تكسبه من المرسم للمحتاجين. وتقضي أيامها بأقل القليل وكثيرًا ما تدخر هذا القليل لشراء الكتب. كانت ترى الجمال في مواضع لا يرى فيها الآخرون أي شيء. وتلتمس الحُسن في أشياء يتفق كثيرون على أنها قبيحة ومنفرة. كان كل ما فيها وديعًا ليّنًا. هل كانت صفية ملاكًا؟

الملائكة في السماء. أمّا البشر فبشر. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. لم تكن طباع صفية تخلو من النقص البشري الحتمي على كل حال. وهذا ما لمسه سالم نفسه. فقد شهدت السنة الأولى من الزواج بعض المناقشات حامية الوطيس بين الزوجين حول أمور بالرغم من أنها تبدو في مجملها تافهة إلا إنها كانت كفيلة بكشف الكثير من طباع الزوجين..

سالم مثلا كان يبدو في بعض الأحيان أنه يلقي المسئولية فيما آلت له حياته الزوجية السابقة على كاهلي أمه وأبيه الراحلين وشادية. وهو أمر كان يصيب صفية بحنق يدفعها بنبرة صوت غير طيبة وغير مسالمة لأن تقول لزوجها صراحة أن الإنسان الذي يقع في زواج فاشل أو تعيس يجب أن ينظر في نفسه، لا أن يبحث عن شماعات يُعلق عليها تلك الكارثة التي يعاني عواقبها طفلان. وقد قالت له صراحة: "يا سالم أنت اتعاملت بسلبية وتواكل شديد مع اختيار والدتك الله يرحمها عروسة لك. ولو أنت ببساطة كنت سايب قرار مصيري زي ده يخص حياتك في يد شخص غيرك فمينفعش تشتكي من العواقب مهما كانت وخيمة. أنت مسؤول زيك زي شادية. لكن مسؤول بشكل مختلف. بصراحة أنت بتتصرف بطريقة سلبية في مواقف كتير. في قرارات في حياة الإنسان بيدفع تمنها عدد مهول من الناس بالرغم من إنها كانت قرار فردي وشخصي."

سالم من جانبه كان يغتاظ منها حين تقول أنه إنسان سلبي بل ويعتبرها "غشيمة" على حد تعبيره. فغير أنه لا يرى نفسه كشخص سلبي بالطبع، كان موقنًا أن أي رجل لو توافر له الجو العائلي الهادئ المطمئن سيكون خير أب وزوج وستنعم الأسرة كلها بالسعادة والهناء: "الست هي عامود البيت يا صفية هي اللي تقدر تخلق السعادة أو تقلب الحياة قرف وعكننة. الراجل مسئوليته الفلوس وتوفير لقمة العيش. مش أنه يقعد يعالج أخطاء مراته. هو أنا كنت بتجوز عشان اتهنى واستقر ولا عشان أربيها من أول وجديد؟ ما كانت تقعد في بيت أهلها يربوها بقى. هي ناقصة؟

حكى لها سالم كثيرًا كيف أن الشهور الأولى من زواجه بشادية كانت طبيعيّة. صحيح أنها لم تكن نموذجًا في السعادة لكنها كانت لا تنبأ بزيجة فاشلة ورجل يسعى سعيًا للطلاق. خاصة بعدما عرفت الأولى بزواجه من الثانية.

كان زواجه بصفية نارًا أُضيفت للنار المُشتعلة بينه وشادية التي لاحظت غياب زوجها المتكرر عن شقة والديه وأنه صار أحيانًا يرسل لها المال مع الشيخ محمد عرفه. وجن جنونها عندما تقصت الأمر وعرفت أنه تزوج. وقد استدلت بالبحث والسؤال على عنوان المرسم الذي تمتلكه صفية في حي الحسينية بعدما فشلت في معرفة عنوان زوجها

الجديد في الصالحية. ذهبت شادية للمرسم وهي تحمل في جوفها نيران كافية لتحرق كل شيء. لم يكن دافعها الشعور بالغيرة على زوجها. كما لم يكن دافعها المحافظة على "البيت" وفق عُرف أي امرأة. كان دافعها آنذاك هو الثأر لنفسها كامرأة تركها زوجها من أجل أخرى وما يحمل هذا الفعل في طياته من حطّ بمقدار الأولى ورفع لمقدار الثانية.

رأت صفية امرأة شقراء يومذاك تقف أمام الباب وتجول ببصرها في المرسم يمينًا ويسارًا. فابتسمت لها وقالت: "أتفضلي، حضرتك محتاجة حاجة."

تفحصتها شادية من طرف شعرها لأخمص قدميها ثم قالت:

- "أنتي صفية صاحبة المرسم؟"
- "أيوة أنا، أقدر أساعدك في حاجة؟"
- "ههههه، لا ياختي ساعدي نفسك عشان مفيش حد هيحوشك مني."
- "أفندم!"
- أنا شادية يا دلعتي – مرات سالم – الراجل اللي سرقتيه من بيته وعياله يا بنت الوسخة."

قفزت شادية آنذاك من مكانها نحو صفية التي تبعد عنها بضع خطوات ثم في غمضة عين لفّت شعرها المتدلي على يدها وانهالت عليها ضربًا. كان الضرب عنيفًا ومبرحًا لدرجة أن الدماء سالت من وجه صفية التي سقطت أرضًا وهي تحاول دفع شادية عنها؛ لكن ما كان شيء ليردع النار المستعرة بين ضلوعها. الغيظ والغضب الشديدان أعمياها لدرجة إنها انهالت بالركلات على منطقة الرحم وما بين الساقين لتتأكد من فقدان صفية لأي جنين إن كانت حامل. لم ينقذ صفية من الموت يومها إلا صراخ شادية نفسها التي كانت تسب وتشتم بعلو صوتها. الأمر الذي دفع الجيران نحو المرسم ليجدوا صفية فاقدة للوعي وبجوارها تقف امرأة تنظر للجميع بشزر. حبس الجيران شادية في إحدى غرف المرسم واتصلوا بالشرطة وتم نقل صفية للمستشفى. كما نُقِلت شادية في صندوق سيارة الشرطة كالمجرمين. اتصلت الشرطة بوالدي صفية وزوجها لاحقًا وتم تحرير محضر بالواقعة. لم يهدأ من روع صفية في ذاك اليوم سوى أبويها اللذين حضرا للمشفى ركضًا. أما زوجها فقد رفضت أن يقترب حتى من سريرها. ومع ذلك، كان جسدها الدامي وصوتها المتأوه كالسياط على قلبه وقد دفعه حبه لها وكرهه لشادية لأن يستخرج تقرير طبي بحالتها الصحية والتي تحتاج لأكثر من ٢١ يوم علاج. وقرر أن يضع شادية في السجن ويحصل أخيرًا

على الطلاق ثم يضم الأطفال لحضانته. إلا أن صفية عندما خرجت من المشفى تنازلت عن المحضر. وعادت شادية للبيت بعد الإقرار على عدم التعرض لصفية مرة أخرى.

حزن سالم لقرار صفية بالتنازل عن المحضر ظنًا منه أنها رفضت المضي قدمًا في الأمر كيلا يضم الأطفال لحضانته ويأتون لمنزل الصالحية. وعاتب زوجته في الأمر بعد أن استعادت صحتها وصرح لها أنه يعلم أنها تنازلت عن المحضر كيلا ينتقل طفليه للعيش معه. صمتت لبرهة ثم أخبرته صراحة أن المرأة التي هجمت عليها من أجل رجل شبه منفصلة عنه قد تقتلها وتقتله إذا خرجت من السجن ووجدت أطفالها ينادون أخرى بماما. واقترحت على سالم أن يطلب منها بعطف الذهاب لطبيب نفسي لأنها إنسانة غير سوية على الإطلاق. نظر سالم لها حينًا وقتها ثم قهقه ضاحكًا وهو يقول: "أي طبيب نفسي يا صفية ذاك؟ إنها تتصرف على هذا النحو لأنها إنسانة سيئة، لا لأنها مريضة أو مجنونة. اخرجي من العالم الرومانسي اللي أنتي عايشة فيه ده أرجوكِ."

ـــــ: "صدقني يا سالم، الست دي بتعاني من خلل نفسي أو عقلي ما. دي هجمت عليا زيّ ما تكون كلب مسعور. دي محتاجة لرعاية نفسية لشهور وسنين قبل أن نحكم عليها بأنها سيئة بمحض إرادتها."

ـــــ: "أنتي مفكرة يا صفية أن الشخص السيء سيء بدافع الظروف

أو المرض النفسي؟ الناس السيئة سيئة بإرادتها. في ناس بتمر بظروف في غاية القسوة لكن بتطلع منها أطهر من المسك. وفي ناس بتعيش ظروف طبيعية وبتطلع سيئة بلا سبب. الظروف يا صفية هي بتكشف لنا حقيقتنا مش بتحولنا لأشخاص طيبين أو سيئين؟"

وبالفعل؛ كان هذا اقتراح المعالج النفسي بلا طائل. فما حدث لاحقًا جعل صفية تندم أنها تنازلت عن المحضر. فالسجن كان هو الحل الأمثل وربما الوحيد الذي سينقذ الجميع من نيران شادية حتى أطفالها أنفسهم، بعد علا، كانت الوالدة مصابة باكتئاب ما بعد الولادة. وانعكس وضعها الذي كان يزداد سوءًا بمرور الأيام على أطفالها قبل أي شخص آخر. وتفاقم الوضع سريعًا لدرجة أن الشيخ محمد عرفه اتصل بسالم ذات يومًا يستحلفه بأن ينقذ تلك الأرواح المسكينة من يد شادية. فالرضيعة لا تكف عن البكاء كل ليلة وصوتها مسموع للجيران. وقد صعد بعضهم بالفعل للتأكد من أن شادية بخير أو إنها تسمع بكاء ابنتها. ووجدوا أنها كانت مستيقظة لكن رفضت أن تدع أي شخص يدخل شقتها. رمح سالم يومذاك لبيت التلة ليعرف ماذا يحدث لأولاده. وما إن طرق الباب حتى رأى ما جعله يحاول التماسك كيلا يتقيأ. الشقة كانت أقرب لمكب نفايات والصغيرة يفوح منها رائحة كريهة. ولا تكاد تخطو خطوتين أو ثلاثة دون أن تبكي بسبب ألم واضح

في النصف الأسفل من جسدها. تملكته رغبة عارمة في صفع نفسه في تلك اللحظة. وشعر بسخط شديد تجاه نفسه حين أدرك إنه كان يعيش سعادة الشهور الأولى من الزواج فيما يعاني أطفاله هذه المعاناة. كان وائل جالسًا أمام التلفاز يقرض أظافره فحمل الصغيرة وهي تنظر له بعيون ألهبها البكاء. تفحصته شادية من طرف شعره لأخمص قدميه وبنبرة اشمئزاز قالت: "خير، ايه اللي حدفك الناحية دي؟ السنيورة بتاعتك شبعت فطلقتك عليا؟"

نظر سالم لها ولم ينطق بشيء، وفهمت إنه أتى ليرى أطفاله؛ فعادت تقول: "كويس إنك افتكرتهم والله، بقالهم أسابيع بيسألوا عنك، ولا مفكر إنك هتخلص مننا بالقرشين اللي بتبعتهم كل شهر! أقولك خلي المخفية مراتك تاخدهم تربيهم زي ما خدت أبوهم! عشان أنا قرفت منك ومن عيالك."

ظل سالم صامتًا ولم ينبت بكلمة بل لم يعرف ماذا يقول. فحين كشف عن ساقي الطفلة اكتشف إنها تعاني من تسلخات شديدة من انعدام العناية بنظافتها، كان جلدها أشبه بالمحروق والمسكينة تصرخ من أي قطرة ماء تلمسه. حملها للحمام وبدل لها كامل ملابسها وأخذها لأقرب صيدلية حيث نصحه الصيدلي بكريمات لتهدئة الالتهاب والحكة وطلب منه الاهتمام بنظافتها. نظر له الطبيب الصيدلي نفسه بامتعاض وهو يرى

جلد الصغيرة شبه مسلوخ من كثرة الحكة والالتهابات، فوضع بنفسه المرطبات لها. وحين عاد بها للمنزل وجدها قد غفت على ذراعه خلال الطريق.

جلس باهتًا أمام منظر البيت الذي يقيم فيه أولاده. وفكر وقتها أن يطلب من شادية أن تتنازل له عن الأطفال، لكنه تردد أمام فكرة أن صفية قد لا توافق على تربية طفلي الزوجة الأولى. أطعم الطفلين بعد فترة وكانا يأكلان بنهم خاصة علا. فسأل وائل عن آخر مرة وضعت فيها لهم أمهم الطعام وذهل عندما عرف أن الأطفال لم يأكلا شيئًا منذ مطلع النهار وأن عشائهم بالأمس كان لفافة من البسكويت.

جلس حينها شاخصًا وبصرة للأرض لا يعرف كم مر من الوقت ثم قام وبدأ ينظف كل شيء. الغرف والمطبخ والغسيل حتى اقتربت الساعة من منتصف الليل؛ كان البيت قد عاد صالحًا للاستخدام الآدمي. وضع الطفلين في السرير وعاد لصفية يقص عليها ما حدث ويستسمحها بأن يحضر أطفاله للعيش معه. ترددت في البداية وشعرت إنها أمام مسئولية ضخمة لكنها وافقت بعد أن آلمتها فكرة أن أطفال مساكين يبيتون ليلهم محترقين بآلام الجوع وعدم النظافة والتجاهل. لم يذهب سالم للعمل في صباح اليوم التالي، بل ركض لشادية فرحًا وهو يتخيل لم شمله على أولاده مع قرة عينه صفية. وكان من الممكن فعلا

أن تسير الأمور على هذا النحو. كان من الممكن أن تنجو تلك الأرواح إلا أن ذاك لم يحدث. بسبب العند! بسبب الكبر! ربما. فقد ثارت ثائرة شادية عندما عرفت إنه يريد أن يأخذ الأطفال خاصة وائل. الذكر الوحيد الذي تبقى لها. بعدما توفى أبيها وانفصل عنها زوجها. حاول سالم وقتها أن يهدأ من ثورتها وأن يقنعها بأنها تستطيع رؤيتهم أي وقت شاءت وأنها حتى تستطيع أن تأخذهم للعيش معها مرة أخرى بعد أن تسترد عافيتها وتنظم أمورها وأكد لها أنه سيترك الراتب الشهري كما هو لن ينتقص منه مليم حتى لو أخذ الطفلين. رفضت شادية رفضًا قاطعًا أن تحصل صفية على الأطفال. واستشعر سالم أن ما ترفضه فعلا هو أن يذهب الطفلين للزوجة الجديدة وليس أن تتخلى عنهم لأنها بالفعل تعيش معهم في نفس المنزل وهي لا تلقي لهم بالا على أي حال. لم يعرف وقتها ماذا يفعل أو كيف يقنعها.

الأطفال جوعى وعلا تفوح منها رائحة كريهة مجددًا وتقضم بقايا رغيف متروك على الطاولة من الجوع. فحملها وبدل لها ملابسها وأطعمها. كان وائل يجلس صامتًا يحملق في التلفاز ويقضم أظافره، لكن على عكس علا، عرف والده إنه تناول إفطاره ويبدل ملابسه كل يوم أو يومين. ويبدو عليه أن ينعم بقسط لا بأس به من الرعاية؛ على عكس الطفلة التي كانت هزيلة وبالكاد تمتلك الطاقة للتحرك.

عرف سالم من الصغير إنها لا تتناول الطعام غير مرة واحدة يوميا أو مرتين على الأكثر بعد أن يفحمها البكاء. وحكى وائل ذو الثلاث سنوات ما جعل أبوه يظنه كاذبًا أو يتخيل. فقد أخبره أن أمه حينما تضع الطعام تعطيه الجزء الأكبر وتأكل هي ثم تعطي ما تبقى لعلا. وكانت طوال الشهور السابقة تخبر وائل ألا يقتسم الطعام مع أخته حينما تجوع لأنها ستموت على أي حال. أما هو فيبدو بخير ويجب أن يتغذى جيدًا ليصبح أقوى وأكبر.

الكلام صادم وأكبر وأعمق من أن يؤلفه طفل لكنه يعلم أيضًا أن شادية مهما بلغ بها التشوّه أو الجنون لن تتوان عن إطعام ابنتها بسبب موت منتظر لا يعرف الأب عنه أي شيء. لم يفهم وقتها أن ما مِن شيء مهما بدا جنونيًا أو غريبًا أو حتى مستحيلا قد يستعصي على نفسٍ منسلخة عن فطرتها. فقد واجه شادية بما قاله وائل. والغريب إنها حتى لم تحاول الإنكار بل أخبرته بهدوء وبنبرة يختلج فيها الكبر بالأسى أن علا لابد ستموت وأنها سألت الله أن يكون الأمر سريعًا رحمة بها. خرَّ سالم على الكرسي وظن إنها تعاني من شيء ما يفتك بها من الداخل، لكن الصغيرة ما عدا التسلخات والضعف العام كانت تبدو بخير. فسألها عما يحدث ولماذا قد تموت الطفلة. وقد أجابته يومها بكلام جعله لا يعرف ما طبيعة المخلوق الذي يسكن جسد تلك المرأة. وأي أم تلك

التي قد يبلغ به التشوّه النفسي لأن تجوّع طفلتها لأنها ولدت ضعيفة البنية وأقل من الوزن الطبيعي وبالتالي فالموت يتربص بها وما هي إلا مسألة وقت حتى تفيض روحها. وهو الأمر الذي تراه أفضل للطفلة لأنها غير ضعف البنية كانت غير جميلة وغالبًا لن تجد من يتزوجها عندما تكبر. ورثت بشرة أبيها الحنطية والعينين السمراوين والشعر الداكن. أما وائل فقد كان قوي البنية وصار أقوى بفضل حسن التغذية ويتمتع بملامح أمه الشقراء حتى أنها تعتبره أكثر تفوقًا ليس فقط على أخته بل على كافة أطفال الحي. ما الذي كان يمكن فعله لطفلة في عامها الأول إذا كانت أمها على تلك الشاكلة. توسل سالم لشادية في ذاك اليوم قائلا: "أبوس ايدك يا شادية سيبيني أخود علا تعيش معايا. وأنا هسيب لك وائل. هاجي اطمن عليه بس يوم أو يومين في الأسبوع، أرجوكي سيبهالي، أنتي مش معتبراها كده كده هتموت، سبيني أخودها أرجوكي واعتبريها ماتت."

صمتت شادية لبرهة ثم قالت له: "ماشي خدها، بس يا ريت مالاقيكاش راجع بها بعد ساعتين تلاتة لأن السنيورة مراتك مش راضية تدخلها البيت."

في تلك اللحظة قفز سالم لغرفة الأطفال وأخذ كل ما يخص علا وحملها ورحل إلى صفية. دخل سالم البيت ليلتها وبالكاد تحمله قدماه

ولا يفكر سوى في ابنه وكيف يسترده من بين أنياب الزوجة الأولى. دهشت صفية حينما دخل عليها هو وعلا. وجدت طفلة لا يكاد يصل ارتفاعها لركبة أبيها يبدو عليها من الضعف والإهمال ما لا لطفل قبل به. جلست أمامها القرفصاء وتطلعت في وجهها وابتسمت لها حتى كادت تبلغ الابتسامة أذنيها. كانت الصغيرة تنظر لها برهبة في بادئ الأمر لكن افتر ثغرها عن ابتسامة بريئة أمام وداعة صفية التي ضمت وجهها الصغير بين كفيها وقالت: "يا بديع خلق الله، ما هذا الجمال يا سالم، إنها تشبهك تمامًا، نفس الوسامة ونفس الملامح المنحوتة."

ما إن سمعها سالم وهي تتعجب من جمال الطفلة حتى سقطت حقيبة الملابس من يده وخر يبكي. ضمته صفية هو والطفلة وفهمت أن الأمر جلل. وقصَّ عليها ما حدث فحمدت الله أنه أحضر الطفلة وأخبرته أنها لا تمانع احضار وائل أيضًا إن استطاع. في هذا البيت الصغير قضت علا خمس سنوات حتى وصلت السادسة قبل أن تعود بوالدها وحقيبة ملابسها مرة أخرى للعيش مع شادية ووائل. تبدلت الطفلة من حال إلى حال في أول شهر لها بين يدي صفية. كانت غير الاعتناء الشديد بنظافتها وتغذيتها قد استطاعت أن تجعل علا تُناديها بماما. وكان سالم نفسه كثيرًا ما يتعجب من هذا السحر الذي يجعل طفلة تنسى أمها التي أنجبتها وتنادي امرأة لم تراها إلا من شهر واحد بماما. هذا السحر كان

اسمه الحنان.

جعلت صفية من غرفة الأطفال مقرًا لعلا وملأتها بالألعاب والنباتات والرسومات الطفولية على الجدران كما صنعت لها خصيصًا وسادة على شكل سحابة. وباتت الطفلة التي كانت محرومة من العطف والرعاية تجد في أحضان زوجة الأب كل ما تحتاجه وأكثر. تحسنت صحتها واكتسبت وزنًا وأزهرت وجنتيها وذهب عنها الضعف العام وأصبحت ترمح في البيت كمهرة صغيرة. وهكذا عاشت حتى أتمت عامها السادس بين أحضان أبوين سعيدين بنفسهم وبها.

مر بهذا البيت ما يمر بكل بيت. أيام ثقال أحيانًا وأيام كدر أحيانًا أخر. يختلف الزوجان ككل الأزواج لكن سريعًا ما يتصافيا ليس لأن أحدهم يخشى الآخر أو يهرب من المشكلة، بل لأن ما يمرون به مهما بلغ من التعقيد لا يغير أبدًا من حقيقة أنهم يشعرون أنهم النسخة الأفضل من أنفسهم وهم مع بعضهم البعض. غيمت على البيت سحابة حزن عندما رحل والد صفية ولحقت به أمها في شهور معدود إلا أن الزوج كان وسط الأحزان سندًا لا يعوض لزوجته. ازدادت الصراعات ضراوة بين شادية وسالم بسبب تمسكها بوائل لكن صفية كانت تحاول جاهدة تهدئة الأمور ليظل على علاقة طيبة بوائل الذي لا ذنب له في كل ما يدور.

كان كل شيء في هذه الأسرة البسيطة يقول أنهم سيعيشون في سعادة للأبد كما الحكايات والأساطير. إلا أن الرياح أتت - ليس بما لا تشتيه السفن - بل بما يحطمها تمامًا. كان شيئًا ما في صفية قد بدأ يأفل. تقل طاقتها يومًا بعد يوم حتى صار يصعب عليها الاعتناء بطفلتها أو بيتها حتى امتنعت عن المرسم. تجاهد في أن تقضي حوائج البيت الأساسية لكن دون جدوى. استيقظ زوجها ذات صباح على صوت قيء شديد وقبل أن يصل للحمام ليتفقدها سمع صوتها ارتطامها بالأرض فاقدة الوعي. لم يكن ما شعر به خوفًا، كان شيئًا أثقل وأعقد، شعر أن شيئًا ما في داخله تهاوى من بين ضلوعه لأطراف قدميه. حمل زوجته بمساعدة البواب لسيارة الأجرة والطفلة بين سيقانهم تبكي. وحين حُجِزت للفحص جلس أمام غرفتها يمسح دموع الصغيرة ويهدئ من روعها. كان كل شيء فيه فزعًا لكنه حاول طمأنة نفسه بأنها ربما حامل ولا تعلم. ومر زمنًا حتى خرج الطبيب من غرفة الكشف. لم يكن مستبشرًا ولم يبدو عليه أي ارتياح. أخبر الزوج أن صفية يجب أن تبقى تحت الملاحظة وطلب عدد كبير من الأشعة والفحوصات.

ظلَّ سالم رغم كل شيء يرجح أنها حامل، ليس لأنه يرغب في طفل آخر، بل لأن أي احتمالات أخرى كانت تصيبه بالفزع. الفزع الذي عصر أحشائه أكثر عندما دخل الغرفة التي نُقلت لها ورأى شيئًا ما

فيها يغرب وينوء. اقترب منها وكانت تنظر له وللطفلة وتبتسم. وكان أول ما فعلته أن اعتذرت إنها أفزعته ودعته ليقترب منها هو وعلا وضمتهم لها. كانت عيونها مثقلة بحزن غريب وفزعة من شيء مجهول لكن وجهها البشوش كان مبتسماً كعادته. تخللت أصابعها شعر الطفلة وضمتها لصدرها فهدأت ونامت. جلس سالم بجوارها وصارت تقبل رأسه تارة ورأس علا تارة أخرى. ساد الغرفة صمتٌ مهيب. تجمدت الكلمات في حلقه لا يعرف بما ينطق أو ماذا يقول. كان يستدعي صوته ويحاول أن يقول أي شيء لكنه عجز تمامًا. هل كان يعرف إنها توشك على الرحيل؟ نعم، لقد وقّر في قلبه إحساسٌ لا لبث فيه بالفقد. كان قلبه يموج اضطرابًا ويأمل كما يأمل المحكوم عليه بالإعدام بحدوث شيءٍ ما، ربما معجزة، ربما يدخل الطبيب الآن ويخبره أنها بخير ويستطيع الذهاب بها للمنزل. لكن أي من ذاك لم يحدث. لقد عادت الممرضة لأخذ عينات دم متعددة وحين انتهت، لم يسألها سالم ما الذي يشك فيه الطبيب بل لم يسأل الطبيب نفسه، سأل صفية. هي وحدها مَن تعرف حقًا ماذا يحدث، كانت تعرف لدرجة إنه لم يضطر لسؤالها ماذا يحدث. لقد نظر لها ففهمت كعادتها ماذا يريد من عينيه. ابتسمت له وقالت: " لما لا تذهب للبيت، بدل ثياب النوم وأحضر بعض الطعام لعلا، لقد جهزت لها عبوات عدة. واحضر لي بعض الثياب، لقد جهزت حقيبة

صغيرة لي ووضعتها تحت سرير علا. وادخرت بعض المال ربما يكفي ولو مؤقتًا. ستجده في صندوق الذهب، مر بمحلات الصاغة أثناء عودتك لي وبع كل ما فيه الشبكة وما ورثته عن أمي. وأجمع المال كله وعد لي."

وقف سالم شاخصًا بعد أن سمعها. لم يناقشها في أي شيء. توجه لباب الغرفة لكنه عاد ونظر لها وقال: "لا تُغلقي الباب حتى أعود أرجوكِ."

فأومأت برأسها. وانصرف وهو يقلب بصره في الممرضات والأطباء وحتى أهالي المرضى. كان يبحث عن شيءٍ ما. ربما يستوقفه أحدهم ويقول له أن هذا كله حلم، بل كابوس طويل، لكن أحدًا لم يفعل. وصل لبوابة المشفى ووجد حارس العقار لا يزال في انتظارهم، وقبل أن ينطق بأي شيء قال له: "أكيد حضرتك نسيت تاخد معاك أي فلوس - أنا معايا عشرين جنية تنفع في أي حاجة لحد ما سيادتك ترجع البيت."

نظر له سالم دون أن ينبس بكلمة وفجأة ارتمى على كتفه وأخذ يلهث في البكاء ويقول: "صفية بتموت يا عم حسين."

سمع الرجل العبارة ووقف هو نفسه متجمدًا لا يعرف بما يرد. كانت دقائق عدة قد مضت قبل أن يستدير ويوقف سيارة أجرة للعودة

للبيت. نزل سالم مترجلا نحو العمارة فيما دفع العم حسين الأجرة. وبالفعل دخل غرفة علا ووجد صفية قد جهزت حقيبة ممتلئة بكافة ما قد تحتاجه في المستشفى. وحتى حين فتح الثلاجة وجد عبوات طعام لعلا تكفي لمدة أسبوع. بدل ملابسه وأخذ كافة المصوغات وباعها كما طلبت صفية وعاد للمستشفى. وحين وصل وجد ليلى بجوار السرير شاخصة وتنظر لصفية وهي نائمة. تحمل علا بين يديها وتنظر لسالم وهي تنتظر إجابه ما. فأومأ لها وخرجا من الغرفة. ثم سألها:

- "كيف عرفتي؟"
- "اتصلت بي إحدى الممرضات بعد أن أعطتها صفية الرقم."
- "هل قالت لكِ أي شيء."
- "لقد وصّتني على علا!"

وصل الطبيب حينذاك وطلب التحدث مع سالم على انفراد. ووقفت ليلى تتابع من بعيد رد فعل سالم ونظراته. وبالرغم من أنها لم تسمع ما قاله له الطبيب؛ إلا أنها لم تسأله بعدما عاد لها. نظرا لبعضهم البعض مطولا ودخلا مرة أخرى لصفية. صفية نفسها لم تسأل ما الذي قاله الطبيب. كانت تعرف، بل كانت متأكدة. كانت تعاني من نفس الآلام والأعراض التي عانت منها أمها قبيل وفاتها بشهور. والأغرب من

ذلك أنها قبل دخولها المستشفى بأسبوع واحد روت لصديقتها حلم غريب حيث رأت نفسها واقفة على ضفة النيل قبيل الغروب تنتظر الأتوبيس النهري ووالدتها جالسة في الضفة الأخرى تلوح لها لتأتي. وبالرغم من كل ما قد تثيره فكر الاقتراب من الموت من خوف وقلق. لم تكن صفية تشعر بالخوف ولم تجزع أو تنهار. بالعكس، استيقظت في ذلك اليوم وهي ساكنة تمامًا من الداخل والخارج. مارست حياتها بشكل طبيعي. وبدأت تفكر في أفضل وضع لعلا إذا مرضت ودخلت المستشفى.

مضى أربعة أشهر على صفية وهي في المستشفى تخضع لعلاجات دقيقة ومعقدة لسرطان القولون وفي سبيل ذلك باع سالم معظم ما يملك لكن بلا جدوى. ففي صباح الرابع عشر من يوليو، عام ١٩٩٦، لفظت صفية آخر أنفاسها. كان سالم يجلس دائمًا بجوار السرير يخشى أن تغمض له عين فيتوقف قلبها وهو نائم — ما عدا تلك الليلة — طلبت منه أن يحضر لها علا لتراها. فذهب لمنزل ليلى في منتصف الليل وأحضر الطفلة التي جلست مع أمها لساعتين حتى غشاها النعاس.

في تلك الليلة أخذت صفية تتحدث مع أمها الميتة مطولا. كانت تشرح لها حال علا كأنها جالسة أمامها على السرير، لحما ودما، لم تمت ولم تمر عليها الشهور والسنين. كان سالم شاخصًا أمام السرير وهو يرى

صفية تتحدث لأمها الميتة ووقر في نفسه أن هذه هي لحظاتها الأخيرة وأنها في غضون ساعات لا أيام ستكون قد فارقت الحياة.

حمل عنها البنت وجلس بها لكن للمرة الأولى يغلبه النعاس. وهو يراقب صدر صفية صعودًا وهبوطًا وهي نائمة. ورأى كما يرى الحالم صفية تقف بجواره ويديها على كتفه وتطلب منه أن يستيقظ قبل أن ترحل. فانتفض فزعًا ووجدها مستلقية كما هي على السرير تنظر نحوه.

امسكت بيده وطلبت منه أن يقرأ معها سورة الإخلاص ثلاث مرات، ففعل. كانت الكلمات تخرج منها بصعوبة وثقل وما إن انتهت من القراءة حتى نامت قريرة العين إلى الأبد. حينذاك، لم ينادي على الممرضات ولم يصرخ. كانت الدموع تنهمر منه بغزارة وعلا بين ذراعيه نائمة فحملها للسرير ووضعها إلى جانب زوجته واستلقى بجوارهم وسحب عليهم الغطاء ونام بسكينة كم من الساعات لا يعلم. ارتعبت الممرضات عندما أيقظوه هو والطفلة. كن ينظرن لبعضهن البعض ولا يعرفن إن كان يعلم إنها توفت أم لا. حمل الطفلة وعاود البكاء فعلمن أنه يعرف. سحبت إحداهن الغطاء على وجه صفية ورفعنها على سرير آخر لتذهب للغُسل. دخلت ليلى الغرفة وصفية تخرج منها لم ترى أمامها غير سالم يبكي بحرقة والطفلة قد استيقظت وتنظر لدموعه وهي متعجبة وتسأل عن أمها. يرتفع نشيج الأب فتصرخ الطفلة طلبًا

لأمها. حملتها ليلى وضمتها وهي تتشنج أكثر وأكثر ثم اتصلت بزوجها فأتى على الفور وأنهى أوراق المستشفى وتصريح الدفن ونقلها لمسجد قريب من بيتهم في الصالحية وحضر الشيخ محمد بنفسه وصلى عليها صلاة الجنازة وتم دفنها عقب آذان الظهر ثم أقيم العزاء أمام منزلهم في الصالحية حيث حضرت شادية وهي في أبهى حلة من السواد وبكامل أناقتها وتضع الكثير من مستحضرات التجميل.

في الصباح التالي والذي يليه والذي يليه كان سالم يستيقظ ليُطعم علا. ويذهب بها لليلى ولا يعود ليأخذها إلا في الليل. وهكذا وعلى مدار أسابيع يذهب كل صباح ليرى صفية يجلس أمام القبر بالساعات حتى تغيب الشمس ويستوحش ظلام القبور فيعود ليأخذ علا وينام بها في قاعة الاستقبال وفي الصباح التالي يتكرر الأمر. في أول أسبوعين كان قد نقل معظم النباتات التي تحبها أمام قبرها. وفي الشهر الأول كانت بقية النباتات في المنزل قد ماتت لكنه لم يلاحظ. تعفن السمك في حوضه لكنه لم يلاحظ. خسر الكثير من الوزن لكنه لم يلاحظ. كانت الصغيرة مصابة بصدمة بسبب اختفاء أمها وغياب والدها الزائد عن الحد لكنه لم يلاحظ. في الواقع، حدثت الكثير من الأمور لكنه لم يلاحظ. كل ما كان يشغل باله هو أن صفية ليست موجودة. ولن تكون موجودة أبدًا مرة أخرى.

كان يشعر أن العالم بأبعاده الأربعة سجن ضخم. وأن المرأة الوحيدة التي أحبها تقف في الخارج - خلف الجدران الأربعة لتلك الغرفة التي تسمى العالم. ودَّ لو يمد يده عبر الأبعاد الأربعة للزمان والمكان فيخترقها ويسحب زوجته مرة أخرى للداخل. يجلس أمام قبرها ويتخيل الأمر لساعات. سيمد يده عبر الأثير ويمسك بيد حبيبته وسيقول لها بمجرد أن تعود أن الأسماك ماتت شوقًا لها. وأن النباتات طلبت أن تُنقل بجوارها. وأن حتى الثياب في خزانتها يشتاق لملمس بشرتها. وأنه لم يطأ غرفة نومهم لأنه ينتظرها لتعود. يستعصي الخيال أن يكون حقيقة. فيخبط رأسه في جدار القبر وهو ينوح: "بنت موت يا صفية - بنت موت يا صفية."

هناك لحظات رائعة يعيشها الإنسان تكون كثيفة الإحساس وعميقة المعنى حتى أنها تخترق جبين الزمان من جه لأخرى - عرضًا - فتترك فيه جُرحًا تنفذ منه المشاعر للأبد. ويبدو أن هناك جروح لا يمكن رتقها أبدًا. هناك عيونٌ مهما بكت سيظل فيها دمع لا ينهمر. خلّف رحيل تلك المرأة فراغًا عريضًا ومفترسًا. فراغٌ موحش لم يملأه شيءٌ قط.

فالمدعو سالم أحمد نجم الدين لم يتوفى في صيف العام ٢٠٠٢. بل كان يموت من قبل ذلك بسنين. يموت كل يوم منذ رحلت صفية، حتى لم يبق فيه شيءٌ حيًا، فقيل مات. سنوات مرت على رحيلها وهو لا يخرج

من حزنه. رثَّ مظهره وطالت لحيته وصار يذهب للعمل فقط ليطعم الأفواه الجائعة التي تنتظره في المنزل. باع معظم ما يملك في فترة مرضها ولم يبقى سوى مبلغ بسيط في البنك، عشرون ألف جنية، وراتبه. حتى الشقة التي استأجرها لها في حي الصالحية تركها لأنه لم يعد قادرًا على دفع الإيجار. وحين عاد بعلا لشادية دخل وأغلق الباب وهو يخبرها أنه سيعيش مع أطفاله في هذا البيت شاءت أم أبت. لم ترفض شادية. فقد سئمت من نظرات الناس لها كزوجة مهجورة لا هي المتزوجة ولا هي المطلقة.

كانت عودة علا لذاك المنزل بداية لمأساتها التي أفضت بها في النهاية للبحر. تدهورت صحة السيد سالم النفسية يومًا بعد يومًا دون اللجوء من طرفه لطبيب نفسي. بل أن الذهاب لطبيب نفسي في عرف ذاك الزمان كان يعد أمر شاذًا. الطبيب النفسي مختص بعلاج المختلين عقليًا. وبالتالي فأن أي شخص يلجأ له يعد مختل عقليا. ومع ذلك، قرر السيد سالم الذهاب لطبيب نفسي سرًا دون علم أحد. لكنه لم يستطع تحمل تكلفة الجلسات. فحالته المادية كانت تتدهور هي الأخرى يومًا بعد يومًا. كان يخصم منه ربع راتبه وأحيانًا أكثر بسبب تغيبه الكثير عن العمل ليذهب لصفية.

وفي واقع الأمر لم يكن اكتئاب السيد سالم سببه الوحيد موت حبيبته.

بل الأكثر من ذلك، كان السبب أن من مات هي صفية وليست شادية. تركه الحزن جاحدًا بكل كلمات العزاء. لم يك شيءٌ مما حدث منطقيًا بالنسبة له. بل لم يك شيء عادلا. كان الشيء الوحيد الذي يمنعه أن ينتحر هو أنه يتغيب عن البيت معظم الوقت فلا يضطر لرؤية شادية. في تلك السنوات، كان مظهر علا الرث وعيونها الذابلة يفصحان عن حجم المعاناة التي تعانيها. لكن والدها كان قد وصل لحالة من المرض صار فيها عاجزًا عن مساعدة أي شخص حتى نفسه. كان كل شيء فيه يتداعى. تفشى الحزن في قلبه كمرض خبيث.

أتى ربيع العام ٢٠٠٢ ليضع حدًا لهذا العذاب. أصيب بحمى شديدة وكان يهذي فيها أيما هذيان. تمرضه شادية أحيانًا إذا ما كان غائبًا عن الوعي ولا يهذي لكن ما إن يباشر النداء على صفية تتركه لعلا تمرضه هي. تكاثر عليهم الزوار في تلك الفترة بعدما كان البيت مهجورًا لا يزوره أحد. حتى الذين عانوا من قلة أدب شادية تنازلوا وزاروا سالم في أواخر أيامه. ليلى نفسها زارته هي وزوجها مرتين بعدما علمت بمرضه بالرغم من أن شادية طردتها من البيت سابقًا لرغبتها في الاطمئنان على علا. لم يدر السيد سالم من زاره ومن لم يزره. كان كل شيء فيه زاهدًا في الحياة وصار الموت بالنسبة له هو الباب الوحيد نحو صفية.

وقد أتى يوم استيقظ فيه طيبًا كأن لا بأس مسه. وكان كل ما فيه يبدو سليمًا. طلب رؤية علا ووائل. وضمهم إليه ووصى وائل على علا. وأكد وائل إنه بالطبع سيراعيها إنها أخته. ثم خرج من الغرفة مسرعًا ليلتحق بفريق الحي في مباراة كرة قدم. وجلست علا على طرف السرير بجوار أبيها تطعمه وهي سعيدة. لقد شُفيّ أخيرًا من الحمى التي أقعدته لأسابيع بين الصحو والهذيان. في ذاك اليوم طلب من شادية ألا تدخل الغرفة فغضبت وخرجت وجلست علا منفردة معه. كان يبتسم لها وهي تطعمه وأخبرها إنها تشبهه شكلا لكنها تشبه صفية موضوعًا. امتلأت عيناها بالدمع وطلبت منه أن يحكي أكثر عنها. غيمت عيونه وهو يبلع الطعام ثم قال: "كان من الطبيعي أن تموت صفية. لم أفهم هذا إلا الآن. كانت بنت موت. هذا العالم لا يتسع لامرأة بهذه الروعة. صفية بتحبك جدًا أنتي لسه أغلى حاجة عندها. أنا مزعلتش لما لاقيتها بتحبك أكتر مني. عارفة ليه يا لولو؟ عشان أنا نفسي بحبك أكتر مني."

ضحكت علا وأخذت تضم أبيها إليها وهو يربت على كتفها ويقول: "أريدك أن تكوني قوية. هذا البيت بيتك مثلما هو بيت وائل. وبالطبع سيكون لشادية ورثها الشرعي..."

بكت علا في أحضان أبيها وهي تستمع له وشعرت أنه يودعها. كانت أصغر وأضعف من أن تتحمل كل هذا وهي لا تزال في الثانية

عشر من عمرها. لكنها مع ذلك ورغم سنها الصغيرة تمالكت رباطة جأشها وقالت بصوت رصين ومتزن: "متقلقش يا بابا. أنا عارفة إنه بيتي زي ما هو بيت وائل." وهكذا رحل الأب بعد الدخول في غيبوبة استمرت عدة أيام. وصارت هي بمفردها في وجه والدتها والفتى الذي لم تعتبره أخوها قط. دارت رحى الزمان وبهت الحزن والفقد. ووجدت شادية نفسها أمام أفواه جائعة لا يكاد يكفيهم معاش والدهم نصف الشهر. فعرض صديق زوجها، الحاج رشدي، أن يتكفل بمصاريف الأولاد كرامة لذكرى الراحل. وكان من الممكن أن تستمر الأمور بهذه البساطة. تحصل على مبلغ إضافي كل شهر من الحاج رشدي لتربية الأطفال في هدوء لكن الأمور مع تلك المرأة كانت تختلف كالعادة .

كان جمالها الأوروبي الأخاذ وسيلة سريعة لها للوصول لقلب الحاج رشدي والذي كان مقاول عقارات يعشق الشقراوات ومتزوج من امرأة تدعى إلهام، شقراء بالطبع، وله ثلاثة أولاد. كانت شادية بالنسبة له في البداية مجرد زوجة المرحوم سالم نجم الدين. دخلت بيتهم بوجه العوز والفاقة إلا أن بعد دخولها كثرت الخلافات لسبب وبدون سبب بين الحاج رشدي وزوجته. في البداية حصلت على رقم هاتف المحل الذي يملكه بحجة أنها تفكر في بيع شقة أطفالها التي ورثوها عن والدهم لكنها لم تكن فعلا تنوي ذلك. كل ما أرادته كان سببا وجيها للحصول

على رقم الحاج رشدي. واهتم الرجل بدوره بالأرملة الجميلة أيما اهتمام. سبب اهتمامه الغريب بعض الضيق بالنسبة لعلا في البداية لكنها اعتادت الأمر حيث وفرت معرفة الحاج رشدي الكثير من مستلزمات المنزل التي ما كانت شادية لتوفرها بمعاش الأب الهزيل.

كانت علا الأكثر اطلاعًا على ما يحدث بين الرجل ووالدتها بحكم طبيعة شادية التي لا تلقي لها بالا لأنها فتاة - لكنها كانت شديدة الحذر مع وائل حيث لا يجب أن يعرف شيئًا كهذا عن أمه بوصفه في النهاية ذكر. تلاحظ الفتاة غياب والدتها عن المنزل لساعات طويلة أيام الجمعة. كانت تؤكد عليها دائمًا أن تخبر وائل إن سأل عنها إنها ذهبت للسوق أو لزيارة إلهام. وكانت الفتاة تعرف أن ما يحدث عكس ذلك تمامًا. فلا يوجد ربة بيت تذهب للسوق في أبهى حلة وبكامل مستحضرات التجميل وبعض الثياب الداخلية في حقيبة يدها. هذا غير أن شادية تعود من تلك المواعيد المريبة لحوض الاستحمام مباشرة. وهو أمر لم تكن علا ابنه الحادية عشر عامًا تفهم معناه في ذلك الوقت. فهمته فقط وهي في السابعة عشر من عمرها. وأن أي علاقة حميمية تستوجب الغُسل. ومع ذلك، استمرت الأمور على هذا الحال لمدة عام حتى أتى اليوم الذي تبددت فيه تلك السعة.

كان يوم جمعة كالعادة. تزينت شادية وهمت بالخروج بعد أن انطلق

وائل لمباريات كرة القدم. دق باب البيت، فتحت شادية لتجد نفسها أمام عيون ألهبها الدمع وصوت مبحوح من كثرة الصراخ. وقفت شادية شاخصة أمام إلهام وعرفت وقتذاك أنها كشفت أمر علاقتها بزوجها. لم تنطق إلهام بالكثير. نظرت لشادية فقط، نظرة قاتلة، وبصقت ملء فاها عليها. ثم قالت: "مفكراه هيسيب بيته ومراته اللي بيعشقها وعياله اللي بيموت عليهم عشان واحدة بينام معاها يا وسخة."

كانت علا في الداخل تسمع كل شيء. وما إن انغلق الباب وعادت والدتها لغرفتها حتى نادت عليها وطلبت منها أن لا تذكر شيء مما حدث لوائل. لم تكن تلك الزيارة خاتمة الأمر. فقد تدهورت الأمور المادية بسرعة فائقة من جديد. وانقطعت المساعدات الشهرية التي كانت تتلقاها شادية من صديق زوجها الراحل بعدما انكشف أمرهم أمام زوجته. وعاشت علا مع والدتها والأخ الشقيق على هذا الحال لمدة عام آخر. وكان من الممكن أن تستمر الحياة على هذا الحال، بضيق ذات اليد، لكن مستمرة. إلا أن شادية كالعادة دفعت بالأمر نحو الأسوأ. فقد عرض عليها زوج أختها أن يشتريا سيارة نقل بضائع مناصفة حيث سيدفع كل منهم أربعين ألف جنية. وشرح لها حجم الربح والعائد المادي الذي قد يصل لبضع آلاف في الشهر الواحد. فأسرعت شادية لسحب رصيد أطفالها من البنك والذي كان يبلغ عشرين ألف

جنية. واقترضت عشرين آخرين بضمان معاش الزوج ثم سلمت المبلغ لزوج أختها الذي اشترى السيارة بالفعل لكن دون جدوى. فقد كان كسولا لا يكاد يسافر بها إلا مرة واحدة في الأسبوع. وتحولت البضع آلاف التي حلمت بها شادية إلى ثلاثمائة جنية شهريًا. وانتهى الأمر بأن بيعت السيارة كخردة بعد حادث مروع نجا منه زوج أختها بأعجوبة. وعاد لها بالنصف من ثمن البيع فسدت قرض البنك.

كانت علا في خضم كل هذا لا تكترث لا بالمال ولا بعدم وجوده. كان كل ما يهمها فقط أن تجد والدتها ما يشغلها لأنها تكون أقل عنفًا معها وهي مشغولة عنها. إلا أن شادية كانت أكثر عنفًا ودموية بعد خسارة ميراث أطفالها البنكي وتنصل الحاج رشدي منها. ظلت إحدى علامات العنف مسجلة على جسد الفتاة كختم يقول في هذا الجسد تعيش إنسانة مقهورة ومعذبة. كان حرقًا عميقا من الدرجة الأولى على ذراعها. حرقٌ من هوله لا تتذكر الفتاة لحظة حدوثه. تتذكر قبل وبعد الحرق والحادثة التافهة التي أدت لضربها وحرقها على يد امرأة من المفترض أنها والدتها. كل شيء حدث في تلك الليلة ظل محفورا في ذاكرتها؛ محفورًا حرفيًا بالنار.

ففي أحد الأيام كانت تلعب مع فتيات الحي فوق سطح بيتها وانقلب الحديث لكلام عن البلوغ ومستحضرات التجميل، وركضت كل فتاة

منهن لبيتها لتحضر ما لديها من أدلة تثبت أنوثتها. إحداهن أحضرت قلم مرطب للشفاه. وأخرى أحضرت نظارات شمسية اشتراها والدها لها خصيصًا. وثالثة أحضرت حذاء بكعب طويل يجعلها تتمايل وهي تخطو فيه. علا نفسها أحضرت إحدى حقائب شادية. كانت صغيرة ومستديرة وادعت أنها حقيبتها اشترتها لها والدتها خصيصًا. ودارت رحى الحديث المفعم بأحلام الأنوثة لصغيرات بلغن لتوهن الحلم. ثم حدث ما لم يكن في الحسبان. سقطت زجاجة طلاء أظافر على حقيبة شادية. وحاولت الفتيات تنظيف الحقيبة لكن أدى مزيل الطلاء لتقشير جزء من جلد الحقيبة.

لم تمض سوى ساعة حتى لاحظت شادية اختفاء الحقيبة من على السرير وسألت ابنها فأخبرها أن علا أخذتها لتلعب بها. وفي أقل من دقيقة كانت شادية قد رمحت للسطح وصفعت علا أمام بقية الفتيات وطردتهن. في ذاك اليوم حملت علا من شعرها حتى رفعتها عن الأرض. وظلت المسكينة معلقة من شعرها وهي تصرخ وتستغيث من الألم. وما أن أفلتتها من قبضتها حتى طلبت من ابنها تسخين سكين على النار حتى يخضّر اللهب. وقام وائل بما طلبت. لم يتردد ولم يفعلها خوفا من أمه، هو فقط فعلها. وكأن هذا أمر طبيعي أن يتم تسخين سكين لتحرق به أخته. بلغ صوت صراخها عنان السماء وكادت تخر

لتوسلاتها الجدران لكن دون جدوى. ناول الفتى السكين لأمه التي قبضت بكامل قوتها على معصم علا وفعلت ما فعلت. مر ما مر من الوقت والسكين يُذيب من جلد المسكينة التي بالت على نفسها من شدة الألم وخدر النحيب ثم قضت ليلتها على الأرض بعد أن غلبها النعاس وهي تبكي. وفي الصباح التالي كانت شادية تصرخ فيها لتنظف مكان ما بالت. ثم أعدت الفطور وللمرة الأولى من زمن تطلب منها أن تتناول الطعام. وأحست شادية أنها بذلك قد كفرت عن فعلتها التي بررتها لنفسها تحت مسمى "تربية البنت" وهي بالطبع أم وتخاف على ابنتها بدليل أنها أعدت لها الفطور في اليوم التالي.

فعلت علا ما أومرت به لتجنب الصفع والضرب. وفي حين كانت يدها تحتاج لضمادة عاجلة، لكن شأن الحرق شأن أشياء عدة في حياتها؛ لكن لم تجد شيء تتضمد به. لم يك هناك يد ترتبت، ولا صدر يضم، ولا قريب تطلب منه النجدة. لم يكن أمامها غير ليالي الخوف والفزع. تدخل غرفتها كل ليلة وتضم نفسها بنفسها وتذرف الدموع وحيدة. تتسلل رغم ذلك لسرير والدتها في بعض الليالي وتنام تحت قدميها وهي مرتعبة من كثرة الكوابيس. ومن مكانها هذا تحت الأقدام ظلت الفتاة في علاقاتها بالعديد من الناس وليس بوالدتها فقط.

فالذي نشأ من تحت تلك الحطام وفي تلك العائلة، لم يكن بشرًا بكل

ما تحتمله البشرية من فضائل ونواقص، بل رغبة في التلاشي والاختفاء. لم يتبقى من تلك الفتاة غير رغبة في التلاشي. وعلى عكس المسار البشري الذي يمضي فيه كافة الناس. مرت السنين على علا والحياة تقل فيها وتزيد فيها الرغبة في التلاشي. كانت تتلاشى في كل ما يحيط بها خارج البيت. كانت تتماهى مع كل شيء متاح، الأشخاص والأشياء، النافع والضار. لم يدر أحد شيئًا عن مقدار الحطام الذي تحمله تلك الصغيرة في داخلها سوى خديجة. الصديقة التي كانت بالنسبة لصديقتها بيتًا؛ بها تعتضد وعليها تعتمد.

كان أسوأ ما تتماهى معه علاقاتها السامة بأشخاص لا مكان لهم في حياتها أو حياة أي شخص. ولو عملنا بالقاعدة التي تقول أن الطيور على أشكالها تقع فأنسب مكان لهؤلاء الأشخاص هو حاوية نفايات يجب أن يقعوا فيها. لقد دفعتها ثقتها المنعدمة في نفسها وطبيعة حياتها الكارثية إلى تحمل أشخاص وعلاقات وبيلة ظنًّنًا منها أن الحياة لن تنعم عليها أبدًا بعلاقة طبيعية قائمة على الحب أو التراحم. كانت في أعماق نفسها تظن أنها غير جميلة وغير كفؤ ولا قيمة لها. وخاضت علاقات عدة سمحت فيها بأن يتم استغلالها فقط لأنها تشعر أنها لا تسحق شيئًا على الإطلاق. حتى أنها عندما وقعت في النهاية في حب سليم بركات ظنًا أنه تنصل منها لعلة فيها، مهما تسمع عنه إنه متلاعب أو نرجسي،

ظلت تظن أن العلة إنما فيها.

لم ينقذها من تلك البئر غير طبيبها النفسي الذي عمل جاهدًا على مر سنين من العلاج لرفع الفتاة من هاوية عدم الاستحقاق. كانت واحدة من أكبر إنجازاتها في الحياة هي أنها وضعت حدا لكل ما يمتهنها. بداية من شادية وابنها اللذين التهما روحها وحياتها على مر السنين، وصولا للعلاقات الوبيلة. نعم، كانت علا ككل البشر، أعتى أعدائها هي نفسها التي بين جنبيها. صحيح أن العلاج النفسي ساعدها في تطّييب الماضي الشنيع إلى حد كبير. إلا أن الجروح كثيرًا ما تترك ندبة لا تختفي مهما مر عليها الزمان. كانت تلك الندوب بالذات هي ما جعلت منها ما هي عليه في النهاية. فبعد سنين عدة من التعب والمعاناة جنت ثمار زروع لم تكن تدري حتى إنها بذرتها يومًا ما. كانت في حاجة ماسة لوجود أسرة طبيعية وأم وأب محبين وأهل يهتمون لأمرها. وفي حين إنها لم تجد أيًا من ذاك كله، صارت هي، ولهذا السبب بالذات، أُمًا لكل من حولها. كانت تعطف على كل من حولها. تحب الخير للجميع وتبذل كل ما في وسعها لتساعد كل من يقع في طريقها. كانت تحسن للناس قبل أن يحسنوا إليها، بالأحرى، لم تكن تنتظر أن يحسنوا إليها. كانت تترك في حياة كل شخص يقابلها رسالة مفادها أن الخير لا يزال موجودًا. وأن العطف والحنان لا يحتاجان سببًا لبذلهم. هذا العطاء الذي كان ينهمر منها دون

انتظار مقابل حصدت ثماره حينما كانت في أمس الحاجة لعمل تسد به حاجتها المضنية لحياة كريمة. مَن كان يظن أنها بعد سنوات التدهور الدراسي سوف تجد عملا براتب جيد وسوف تعول نفسها كليًا. بل وستعول حتى أكثر الناس إيذائًا لها: شادية. الوالدة التي كانت تشوّه كل ما تقع عليه يدها، باتت أضعف من دابة بعد أن دارت عليها عجلات الزمن وأصيبت بضغط الدم والسكري واضطرابات في الجهاز الهضمي وحصوة على الكلى. كانت صحتها تتضاءل يومًا بعد يوم. وكان ابنها كما هو عتي لا تأخذه بأي مخلوق شفقة ولا رحمة؛ تمامًا مثلها في شبابها. الشخص الوحيد الذي رأف بها بعد كل ما فعلته كان ابنتها.

دافع علا لتلك المعاملة الطيبة لم يكن الحب. كانت الفتاة تشعر بمزيج من الاشمئزاز والشفقة نحوها. ولا يوجد أبرع من تعبير حنا أردنت "تفاهة الشر" لتفسير ذاك الشعور. كانت كلما تفكرت في أن والدتها تأخذ أي ثياب جديدة تشتريها وتخبأها منها حتى لا ترتديها فقط لأنه من الأفضل أن تترك الثياب لخطبتها أو زواجها. وحتى بعدما صار مال الفتاة كافيًا لتشتري ما تحتاجه من ثياب وهي عزباء أو إن تزوجت، ظلت شادية تخبأ الثياب لحين أن تتم خطبتها. لكأن الفتاة لا تستحق أن ترتدي شيئًا جميلا أو جديدًا إذا كانت حياتها بلا ذكر. وقد تأزمت المسألة فيما بعد حين وجدت علا أن حتى الثياب التي كانت تعيدها من

بين أنياب والدتها تعود للمخبأ السري بمجرد أن تخلعها للغسيل.

انفجر الأمر عندما قررت علا أن تمزق الملابس التي تسلبها إياها. وبالفعل راقبتها يومًا ما ورأت أين تضعها فأتت بكل القطع ومزقتها وتركتهم لها على سريرها. ثارت شادية وجُنَّ جنونها يومذاك. وكادت لولا ضعف صحتها وقوة علا أن تطيح فيها ضربًا كالأيام الخوالي. انفجرت كلتاهما في الأخرى تصرخ وتسب. هذا الانفجار من جانب الوالدة لم يكن دافعه هو نفسه من جانب علا التي ضحكت عندما سمعت صرخة والدتها وهي ترى الثياب ممزقة على سريرها. اقتحمت شادية غرفة الفتاة وقبضت عليها من ذراعها وكادت تصفعها إلا أن علا دفعتها عنها. كادت شادية تسقط أرضًا لولا أن تمالكت نفسها من جديد ودفعت علا للسرير ووقفت أمامها تصرخ بشكل هيستيري وهي تقول: "منه لله أبوكم مطرح ما راح هو السبب في تعاستي هو اللي خلاني أخلفكم وفي الآخر راح اتجوز مرة وسخة ومات وأقعد أنا أشرب مراركم لوحدي."

في تلك اللحظة جحظت عيون علا من مقلتيها وصرخت في والدتها قائلة: "اخرسي، إياكي تتكلمي كده عن ماما صفية، أنتي فاهمة! دي أشرف وأنضف منك ١٠٠ مرة - ولو في حد سبب للمرار اللي احنا فيه فهو أنتي - أنتي السبب أن الراجل الوحيد اللي فكر يساعدنا قاطعنا

ومراته فضحتنا في كل حتة - أنتي اللي عطيتي فلوس البنك لجوز أختك الفاشل وجبتي قرض وسبتينا على الحديدة - كنتي مستنية ايه من إلهام لما تعرف اللي بينك وبين جوزها - كنتي منتظرة ايه من جوز أختك اللي عمر ما جت سيرته إلا في المشاكل والخساير؟"

تراجعت شادية أمام نظرة علا وحملقت فيها لبرهة ثم انقضت عليها وهي تصرخ: "اخرسي يا بنت الكلب يا حيوانة بقى بعد تعب السنين دي جاية تحسبيني - دي حياتي الخاصة يا سافلة يا وقحة - ده بدل ما تحمدي ربنا إن لكي أم بتخاف عليكي وعايزة تشيلك هدمتين تلبسيهم قدام النطع اللي هيجي يتجوزك - ده إن حد عبرك اصلا؟"

فردت تقول: "هو ده كل اللي يهمك أصلا - أن لما يبقى في راجل يبقى في لبس وهدوم - لكن من غير راجل مينفعش ألبس هدوم عدلة لنفسي أو قدام الناس - أنتي إنسانة مريضة."

استيقظ وائل على صراخهم في تلك اللحظة وما إن أبصرته أمه قالت: "تعالى شوف أختك المحترمة اللي بتشتمني".

انهال وائل ضربًا على علا وحاولت بلا طائل أن ترد له الضرب لكن بالكاد استطاعت دفعه عنها ووقفت شادية نفسها بينهم في النهاية تحاول دفعه عنها لكنه لم يخرج من الغرفة حتى هددت علا بإلقاء نفسها

من الشرفة.

وهكذا مضت السنون حتى بلغت علا الثلاثين من عمرها. تنفر من الزواج عامًا بعد عام. لم يكن الأمر كرهًا لجنس الذكور بسبب ما فعلته والدتها. بل لأن كل عام كانت تكتشف في نفسها قيمة جديدة وترى من طباعها ما لم تكن تعرف حتى إنه موجود حتى باتت فرصتها في إيجاد الشخص المناسب تقل أكثر فأكثر. لم تشعر برغبة في الارتباط من أي شخص حاول التقرب منها. واحدٌ فقط هو مَن ودت لو تتزوجه. وكانت على أتم استعداد لفعل أي شيء لتكون إلى جواره؛ لكن لا شيء نجح على الإطلاق. وكما أن هناك مرحلة معينة من الإدراك نسميها ترفع. يأبى فيها المرء أن يتشابه في الوضاعة مع مِن كرههم، فإن هذا بالتحديد ما ندفع علا لأن تكون ما هي عليه. فقد تخلصت من أحقادها تجاه كل من أساؤوا إليها. تخلصت حتى من أحقادها تجاه نفسها بوصفها أحد أولئك الذين أساؤوا إليها.

استطاعت أخيرًا أن تشفق على شادية بسبب تفاهة ما اقترفته في حق الجميع. لقد كرهها معظم من عرفوها. لم تفلح في كسب ود أي شخص من كثرة الضغائن التي سببتها. كانت تمضي بين الناس ككرة لهب، تحرق كل من تقترب منه. كانت ابنتها بالنسبة لها قطعة اسفنج، لكن من لحم ودم، تفرغ فيها طاقة غضبها في أي وقت شاءت ولأي

سبب تراه. عاشت شادية وستموت حتى من دون أن تدرك أن كل الشر الذي اقترفته كان تافهًا لدرجة مثيرة للاشمئزاز. وهذا بالضبط ما يجعلها مدعاة للشفقة. نفس الشعور سيطر على الفتاة حيال الأشخاص الذين استغلوها بدافع الغطرسة من جانبهم وعدم تقدير الذات من جانبها. صارت بعد العلاج النفسي ترى الناس في حجمهم الطبيعي لدرجة الشفقة لا الكره. الانتقام نفسه لا يُمكن أن يودي بهم كما أودوا هم بأنفسهم. أي عقاب ذاك الذي يمكن أن نلحقه بامرأة مشوّه نفسيًا أكثر من كونها امرأة مشوه نفسيًا. كانت شادية تنتعل في رأسها ثقافة قضيبية بامتياز. وكان أكبر عقاب تعيشه هي أن تجد ابنها، الذكر الوحيد المتبقي في حياتها، شديد الجحود تجاهها ولا يكاد يسأل عنها منذ أن تزوج.

عاشت وحيدة مع ابنتها تحت سقف المنزل الذي شهد كل تلك المهزلة. وغير إنها كانت تعد نفسها من النساء الأكثر عطفًا وطيبة في الحياة وهذا بالذات عيبها الشديد؛ كانت تلك المرأة في الستين من عمرها منتفخة كليًا بصور شديدة التميز عن الذات. ولم ترى قط أنها أساءت في تربية ابنها أو هدمت ابنتها وهشّمتها. بالعكس، كانت تعتبر إنها بئر حكمة يجب أن تنهل منه البنت لتصبح مثلها. لقد رأت شادية أنها محشوة بقدر هائل من التجارب. كان لديها رغبة جوانية عاتية في

أن تحس ولو كذبًا بأن عمرها لم يذهب هدرًا وأن أفعالها لم تكن قط جسيمة. فتحولت أفعالها معجونة بذكرياتها ومشاعرها إلى: "جبل حكمة يمشي على الأرض"، على حد تعبيرها. إن الحكمة تسيل من فاها في أي وقت تحدثت. باتت تلك المُسنة تحكي عن شبابها بطريقة تجعلها دائمًا على حق. حتى في أبسط أحاديثها مع ابنتها كانت تُرصع كلامها بعبارات مثل: "أنا بكلمك عن تجربة." هذه العبارة وغيرها أوقدوا النار في الكثير من الخلافات التي كانت تنتهي عادة بأن تتقوص البنت على نفسها وتدخل في حالة بكاء هيستيري بالساعات حتى تتورم عينيها.

في إحدى المرات طرقت باب خديجة بعينين متورمتين ففهمت صديقتها أن الأمر جلل كالعادة. كانت قصة عادية تحدث في كل بيت لكن في بيتها هي كانت حتى الأمور العادية لها طابع ثقيل وعواقب وخيمة. فمنذ أن أكملت البنت عشرين سنة، والوالدة لا تنفك تؤنبها على عدم زواجها. كانت في نظرها مجنونة لأنها رفضت الزواج بأشخاص، هم بالنسبة لها حلم كثير من الفتيات، فيما كانوا بالنسبة للبنت أقرب للطفيليات. يريدون أن يعيشوا حياتهم بالاستيلاء على حياة المرأة التي ستقع بين أنيابهم. يومذاك حكت لخديجة تقول: "تخيلي أن أحدهم كان كل ما يريده من شريكة حياته أن تجيد الرقص والطبخ! لم يسألني يوم زارنا هو وأمه ماذا أحب أو ماذا أكره. لم يهتم حتى بأخلاقي. هل

أنا طيبة أم خبيثة، عنيدة أم لينة، لم يهتم سوى بالتحديق في جسدي والحديث عن الرقص والطبخ. كان حاصلا على بكالوريوس هندسة. وكان هذا كافيًا بالنسبة لوالدتي لأوافق عليه وأنا أتضرع شكرًا لله إنه أعجب بي. لا يهم في مقابل ذلك إنه تافه ولا يشغل فكره غير التباهي. هذا كل ما يملأ رأسه. سخر مني عندما أخبرته إنني أحب الشعر واللغة العربية وهوايتي هي قراءة الكتب. أتعرفين ماذا قال! لن أنسى تلك العبارة ما حييت. إنها من أغبى ما سمعت في حياتي: (بصراحة مش فاهم ايه غيتك في الكتب والقراءة - اتعلمي حاجة تنفعك - احنا بنخرج برة نشوف أشكال وألوان - أنا عايز أرجع البيت ألاقيكي على سنجة عشرة.) تخيلي يا خديجة إنه كان يتحدث كأن موافقتي أمر مفروغ منه. كنت أشعر بالاشمئزاز منه وهو يلتهم قطع الحلوى ويتحدث والطعام ملء فاه. وينظر لي وكأنه يضاجعني في خياله ويتحدث كأن موافقتي مضمونة. في حين أن ما كان يجول في رأسي في تلك اللحظة هو صورة واحدة فقط. صورة انبثقت في خيالي وسط مشاعر الاشمئزاز والاحتقار كلها، إنني أنهال على رأسه بالصينية حتى تسيل دمًا."

غفت علا في منزل رفيقتها على تلك الحالة ورأت أن القيامة قد قامت، والأرض تُزلزل زلزالها، كل شيء حولها كان يرتج ويتهاوى. بلغ صراخ الناس الآفاق وهم يصيحون "القيامة قامت"؛ لكنها استشعرت

الطمأنينة من حيث لا تدري كأنها نجت. ووجدت نفسها تقف في شرفة بيتها ولا تزال أحداث الساعة قائمة، وظهر في السماء شمسان وقمران فجأة ومعهم ست ثقوب سوداء. استيقظت من حلمها فإذا بها تسمع تكبيرات الفجر. ضمت عليها ساقيها وطوقت نفسها وحاولت أن تهدأ، ثم باشرت تخبر نفسها بصوت خفيض: "هذا أثر اضطراب الكوابيس. لا شيء آخر. نعم، لا شيء آخر. هذه مجرد كوابيس وأوهام لأني مريضة ليس أكثر. نعم، نعم، لا معنى لأي من هذه الأحلام. لا تخافي. لن يحدث شيء. لن يحدث شيء."

خرجت من الغرفة للحمام وتوضأت وطلبت سجادة ووقفت تصلي وهي تدمع وتَهَنَّفَ. وما إن انتهت حتى باشرت تقرأ بضع آيات قرآنية مما تحفظ حتى بان الصباح. طرقت خديجة باب الغرفة بابتسامة مشرقة ووجهٍ بشوش وهي تقول: "أحضرت لكِ بعض الزهور على أمل أن تعجبك!"

جلستا الشابتنان كلتاهما تثرثران ببعض الأفكار عن القراءة والكتب والشعر وامتد الحديث مع القهوة: "هل فكرتي من قبل يا علا أن تستقلِ بنفسك عن أهلك. هناك شابات عدة تركن بيوت أهاليهن، أغلبهن كن يعانين من أوضاع لا إنسانية، وانتقلن للعيش في القاهرة بعيدًا عن كل هذا الأسى. ألا تفكرين في القدوم على تلك الخطوة."

---: "نعم، أعرف، هناك فتاة أعرفها شخصيًا قامت بذلك. كانت تعيش هنا في طهم. ولم تكن أمورها على خير حال مع أهلها. تركتهم واستقلت بحياتها في القاهرة. هذه الفتاة بالذات كانت أكبر دافع لي ألا أُقدم على الانضمام لمجتمع الفتيات المستقلات عن أهاليهم في القاهرة."

---: "لماذا؟ ماذا تقصدين؟"

---: "لم تعد منذ رحلت يا خديجة. بالطبع تزور طهم من وقت لآخر. وقابلتها مرة في القاهرة ومرة هنا في طهم، إلا إنها لم تعد نفس الفتاة. لم تعد فتاة أصلا. تعيش مع صديق لها في شقة في مصر الجديدة الآن. وترتدي أمام الناس ما لا ترتديه النسوة أمام محارمهن. أعرف إنها ليست القاعدة. وأن كل فتاة تنتقل للعيش في القاهرة بعيدًا عن أهلها لن تنقلب بالضرورة إلى مثل هذا الحال - لكن أنا .....، لا أعرف ماذا أقول؟

---: "أفهمك. هل تخشين على نفسك التحول إلى ما صارت هي عليه."

---: "نعم، هذا جزء، والسبب الآخر، أنني أشعر وأنا في القاهرة أنني نملة صغيرة يمكن لأي شخص أو شيء أن يدهسني دون حتى أن يلاحظني أحد."

قاطعهم آنذاك صوت الهاتف حيث طلبت شادية من الفتاة العودة للمنزل فرحلت. وفي الطريق مضت تفكر في كلام رفيقتها عن الانتقال للقاهرة. وحدثتها نفسها بأن الانتقال لا يعني حتماً التحول لنمط حياة أكثر تحررًا أو انحلالا. لربما وجدت مكانًا آمنًا ورفقة طيبة تعينها على تقلبات الزمان. كان حلم يقظة جميل ذاك الذي تخيلته. إلا إنه تبدد بعد وصولها للمنزل. نامت ورأت أن معمر القذافي عاد لحكم ليبيا وأن هناك رجلٌ كأنه من نسله حسبه كافة الناس ميتًا لكنه لم يكن كذلك.

جلست تفكر حينذاك. ما الذي قد يتغير إذ انتقلت للقاهرة. ستحمل معها اضطراب الكوابيس أينما ذهبت. الانتقال للقاهرة لن يُغيّر من حقيقة أنها تتآكل من الداخل وأنها تحمل بذرة فنائها بداخلها. إن البيت الوحيد الذي تسكنه ولا تستطيع الهروب منه هو جسدها ذاته. هو الذي يحمل ماضيها ويضم بين ثناياه حقيقة ما تعانيه. ومع ذلك، لم يكن شعورها بعدم الاستحقاق هو سبب لجوئها للبحر، بل لأنها كانت مجهدة جدًا، مجهدة كليًا، مجهدة للغاية. كانت تعلم أنها ستعيش دائماً في صراع مع الزمن ومع الواقع ومع المجتمع وحتى ذاتها. فهي لم تترك نفسها للبحر بسبب شعور ما باليأس بأن لا شيء جيد سيحدث لها. بالعكس، لقد مضت نحو البحر لأنها ببساطة لم تعد ترغب في شيء أصلا. لم تعد ترغب في السعادة ولا التعاسة. لم تعد ترغب في الوقوف

أو الاستمرار. كل ما كنت تريده هو أن تخرج من هذه الغرفة التي تُسمى العالم. أن تمزق قماش الزمن وتخرج من هذه الحياة. وكان البحر بمثابة بوابة الخروج لها.

هذا ما حدث. يبلغ المرء أحيانًا حدًا من الإجهاد يزهد فيها الانتصار في المعركة مهما بدى النصر وشيكًا أو ملوحًا في الأفق. كان كل شيء بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير يسير نحو الأسوأ، ليس فقط على المستوى السياسي بل على المستوى الشخصي أيضًا. حتى كأن ما نجحت فيه ثورة الخامس والعشرين فعلا هي إنها كشفت عن عورات الجميع. وأن الذين قاموا بها كان أكثرهم لا يقلون طغيانًا وزيفًا عن النظام الذي ثاروا لإسقاطه. فطنت الفتاة ككثيرين مِمَن شاركوا في الثورة كيف أن أكثر الناس ادعاءًا لقيم العدل والحرية والمساواة هم أنفسهم أول من خانوا تلك القيم. وأن أكثر الفصائل تمسكًا بالدين كانوا الأكثر ميكافيلية على الإطلاق. هي ذاتها رأت نفسها تسقط ببساطة في أبسط الاختبارات. ما أسهل ادعاء مبادئ لم تختبر. فبعد أن قضت مراهقتها حتى تخرجها من الجامعة في ظلال الدين تحولت بعد الثورة وهي مبهورة ببريق الأفكار التحررية الثورية إلى حالة من التمرد على معظم قيم الماضي التي لطالما ظنت إنها راسخة في بنيانها رسوخًا. مضت تحطم كل الثوابت. وكانت تعتبر أن ما تفعله هو محض حقها في

ممارسة الحرية إلا إنها غفلت عن أن الحرية التي كانت تمارسها ليست سوى غبار في صميمها. غبارٌ يُغطي الحقيقة المُرة. فقدت كل الأشياء معناها وباتت هزيلة تلك الصور الوردية التي تخيلتها عن طهارة الثورة والثوار وقداسة المعاني التي ادعوها. بات كل شيء ماسخًا بالأخص عندما تعرضت إحدى رفيقات الميدان لمحاولة اغتصاب على يد رجلٍ يدعي من النبل والأخلاق والثورية ما يدعيه الجبل عن ثباته. تسع سنوات مرت على اندلاعها كانت كفيلة بغربلة الجميع حتى لم يتبق من الميدان صادقون إلا بضعة أفراد لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. إن المرء بلا اختبارات لا يكتشف أبدًا مدى هشاشة ما يدعيه، وبدون اكتشاف هشاشته لن يفطن أبدًا أنه قد يكون مجرد وجهًا آخر لكل ما يمتعض منه.

فالذي قذف بها نحو اللاأدرية كان هو نفسه الذي ردها للإيمان بوجود خالق للكون بعد حالة السخط العام على ما آلت له ثورات الربيع العربي بدأت موجة الإلحاد في الانحسار بشكل عام. وجدت كما وجد كثيرون قدرًا من العزاء والمعنى في دخائل نفوسهم. لكأن السخط على فداحة الظلم المستشري في العالم هونه إدراكها إنها هي نفسها جزءٌ منه. ظلمت نفسها عندما ادعت مبادئ لا قِبل لها بها. ومعاني لا تستطيع أبدًا تحمُّل تكلفتها وثمنها الباهظ. اكتشفت إنها كمعظم الناس

لا تستطيع تحمل تكلفة الحرية. وأن معظم الذين طالبوا بالحرية كانوا في الحقيقة عبيدًا لأوثان فكرية خاصة بهم لم يقبلوا المساس بها تحت أي ظرف. كان هذا أريح لهم لأنه يرفع عنهم مسئولية التفكر والتدبر والاختيار التي تقتضيها الحرية. لقد انتهت الفتاة إلى أن الثورة تركتهم عرايا - عريًا فاحشًا.

وقد بدأت التحول من اللاأدرية للإيمان مرة أخرى. ووجدت حينذاك من التعنيف والنبذ نفس ما وجدته عندما كانت تملؤها التساؤلات حول الدين والإيمان. كانت الحرية في قاموس الفريقين هي حرية أن تختار ما يؤمنون به فقط. حتى أنها خاضت معركة كلامية حامية الوطيس مع إحدى المدافعين عن حرية الرأي والتعبير انتهت بتبادل بعض الألفاظ النابية لأنها عادت لحظيرة الحمقى والمتخلفين كما وصفها كمال عابدين.

شابٌ في مقتبل العمر يدَّعي إنه شيوعي. كان عابدين لا ينفك عن ذكر الخادمة الأفريقية التي تعمل في بيته مستعرضًا طبيعة حياته الرغدة. كان يدعي كذلك إنه شاعر سريالي بالرغم من أن كل ما كتبه من أشعار لا يحتوي على عبارة واحدة مفهومة أو ذات مغزى. ومع ذلك كانت تلك اللامفهومية هي عين السريالية حسبما يرى عابدين.

جمعته بعلا بضع لقاءات في مقر العمل بحكم تغلغله الغير مفهوم

والغير مبرر والغير منطقي في معظم المؤسسات الثقافية، ناقش معها تحولها من اللاأدرية للإيمان بغلظة واستعلاء. ونشبت المعركة عندما كانت الشابة على وشك المغادرة لكن استوقفتها إحدى الزميلات لتعرفها عليه. وكان هو على علم مسبق بتحولها الفكري بحكم القيل والقال.

شعرت بامتعاض من هيئته ورائحته التي تنم عن عدم اعتناء بالنظافة الشخصية. حاولت الانصراف إلا إنه بادرها بسؤال غريب وهو يتفحصها ببصره من طرف رأسها لأخمص قدميها: "أنتي بقى علا اللي كنتي مسلمة وبعدين لاأدرية ورجعتي للإيمان تاني؟"

كانت نبرة عابدين مزيج بين النرجسية والازدراء ولا تنم عن استفسار بقدر ما تنم عن استنكار، فأجابته: "أيوة، بس أنا مضطرة أستأذن."

احتدم وجهه وهو يرى الفتاة ترد بسخرية فزجرها ببصره وقال: "لماذا تتهربين؟ هل تخافي مناقشة الأمر على الملأ! هل تخافي أن يتضح حجم هذا الهراء الذي تسميه تحول فكري!"

كان ما تتحاشاه علا فعلا يومذاك ليس مناقشة الأمر، بل أي حوارات مرهقة في يوم شديد الحرارة من أيام أغسطس العاتية وبعد

سفر شاق من طهم للقاهرة تكون بعده في أمس الحاجة للراحة. فقالت: "أنا فعلا في غنى تام عن أي مهاترات اليوم، ولازم أرجع لطهم قبل دخول الليل. من فضلك دع النقاش لوقت آخر."

---: أي وقت هذا يا آنسة علا؟ أنت تترددين على القاهرة قليلا وقد لا تسنح لنا الفرصة بمناقشة الأمر مرة أخرى.

---: تفضل يا أستاذ كمال. ما الذي تريد أن تعرفه؟

جلس وعادت هي الأخرى للطاولة واجتمع معهم عدد من الزملاء بدافع الفضول. وبادرها بالسؤال التقليدي: أين هو هذا الإله؟ وإن كان هناك واحد لماذا يحتجب عنّا؟ وما نوع الفائدة العائدة عليه من خلقنا في عالم يتسم بالقسوة إلى هذا الحد؟ إن المنطق الوحيد الذي يمكن فهمه من كل هذه الفوضى هي أنه لا يوجد قائم على هذا العالم يتولى شئونه وينظمها. إنني أعجب كيف لإنسانة تدعي العلم والثقافة مثلك أن تلغي عقلها وتعود باختيارها لحظيرة الإيمان!

كان صوته مدويًا كأنه يُلقي بيانًا أو خطابًا حماسيًا. وتمنت وقتها لو لكمته في وجهه ليخفض صوته أو حتى يخرس تمامًا لكنها قطعت حلم اليقظة هذا بأن تنهدت وقالت: في بادئ الأمر يا أستاذ كمال أنا كما تعلم لست صماء أو ضعيفة السمع. وكذلك كل الزملاء من حولك. فلا داع

صدقًا للصريخ أو "الجعير" بالأحرى. أنا جالسة هنا ميتة من الإرهاق لمناقشة مسألة لست مضطرة لمناقشتها معك أساسًا. من فضلك تحل بآداب الحديث على الأقل.

هز عابدين رأسه بالموافقة بوجه جاهم وسحنة ممتعضة. فأكملت هي تقول: من خلال أسئلتك أرى إنك ككل الناس تقر للعقل بحق استخدام المنطق. فإذا كان المنطق هو وسيلة العقل الوحيدة للمعرفة فسوف أتحدث معك بشكل منطقي بحت لكن الإيمان لا يعوزه المنطق بل يعوزه البصيرة. هل تعتقد أننا إذا أثبتنا وجود خالق للكون بشكل منطقي فإنك ستؤمن به أنت أو غيرك؟ لا أظن هذا بصراحة. سأشرح لك السبب لاحقًا. في البداية دعني أجيب على سؤالك أين الإله. كان للفيلسوف السكندري أفلوطين فلسفة يُطلق عليها "فلسفة الفيض" تقول بأن هناك كائن أول تفيض منه كل الكائنات. هذه التسمية قد نتفق أو نختلف معها لكنها قائمة وبشكل منطقي محض على مبدأ فيثاغورسي بأن ١ + ١ = ٢. الوجود أتى من واجد، أكثر منطقية من، الوجود أتى من عدم. لكل فعل فاعل أكثر منطقية من أن هناك فعلٌ ما ليس له فاعل. أليس كذلك؟

قهقه عابدين وهو ينظر لها وأخذ يهز كرسيه ذهابًا وإيابًا ومضت ثواني ثم قال: حتى إذا سلمنا بوجود كائن أول هو من أوجد كل شيء.

لأن لكل فعل فاعل كما قلتِ. ألا ترين بناءًا على نفس المنطق أن هذا الفاعل لم يره أي إنسان قط. حتى من ادعوا إنهم مُرسلين من قِبلِه. لماذا لا يظهر هذا الكائن الأول ويخبرنا لماذا فعل بنا كل هذا؟ فليخبرنا على الأقل ما الهدف من كُل هذا الخلق! وأين هو من كل الكوارث والمصائب التي تحدث في العالم كل يوم! ألا يُشفق علينا نحن البشر؛ أبناءه أو عبيده، سميها كما تشائين، من هول ما وصلنا إليه؟

نظرت له بتمعن وهي تهز رأسها بأنها تتفهم شكوكه وستجيب عليها فيما كانت من الداخل تتمنى أن يسقط عليه نيزك من السماء بسبب رائحته الكريهة - لكن باشرت تقول: "أن الظلم مستشري في كل مكان فعلًا؛ معك حق. أن ما نراه من أهوال ومآسي يندى لها الجبين. بل أن نشرة أخبار واحدة على أي قناة كفيلة بأن تجعلك تكره الجنس البشري عن بكرة أبيه. وهذا بالتحديد ما يجعل الأمر أكثر تعقيدًا. إننا نرى مظالم الآخرين بوصفها دليلا على غياب إله للكون. فلو أن هناك إله عادل ما سمح بكل تلك الكوارث. لكننا لا نسأل أنفسنا أبدًا: هل نحن مظلومون أم ظالمون! قدرٌ يعبث بنا أم نحن من نخلق أقدارنا خلقًا! ألا تظن أنه يجب أن نتوصل بشكل نهائي وحاسم لوجود خالق أولا ثم بعدها يمكنك الاعتراض على أحكامه، ربما يمكنك حتى أن تعاتبه على ما لحق بنا من ضرر إزاء وجودنا في هذه الحياة. أتتفق معي؟

نفث الرجل سيجارته بضيقٍ يسع الغرفة كاملة - ومَردّة أنها تجيب على كل سؤال بسؤالٍ آخر. فأمعن النظر في وجهها مرة أخرى وقال: "ماشي، سأعتبر أن كل هذا العالم بما فيه من ظلم وكوارث ومصائب ليس كافيًا كدليل على عدم وجود إله قائم عليه. مع العلم أن هذا أكثر منطقية بالنسبة لي من قاعدة لكل فعل فاعل. لكن معلش يعني وياريت تستحملي أسئلتي: أي إله هذا الذي تحاولين إثبات وجوده. الله الواحد الإسلامي! أم الثالوث المقدس المسيحي، أم اليهودي أم البوذي أم.. أم... إلى ما لا نهاية، على الأرض عدد ضخم من الآلهة والمعتقدات. مع العلم إنه إذا أردت أن أحكم بصحة أي معتقد من هؤلاء يجب أن تكون أدلة صحته ليست منه! مين يشهد للعروسة زي ما بيقولو! فلا تستشهدي بالقرآن من أساسه.

---: ما كنت سأفعلها على أي حال. دعنا نعود للنقطة صفر. هناك كائن أول هو السبب في وجود كل الموجودات لكننا عاجزون تمامًا عن تحديد ماهيته أو فهم أفعاله، لكن هذا الكائن لابد أنّه أعطي ما يدل عليه وسط هذا البحر من الآلهة والأديان والمعتقدات، أليس كذلك؟

---: "نعم، منوط به أن يفعل ذلك لو كان موجودًا.

---: "هذا الكائن الأول لابد محكم التمام والكمال خالي من كل نقص. فلنحاول أولا الإجابة عن السؤال البسيط والمنطقي من أين أتى

الكائن الأول ذاته."

---: "كويس والله إنك طرحتي السؤال بنفسك.."

---: "الحقيقة إن هذا السؤال ينقض نفسه. فلو أن الكائن الأول كان له مصدر وجود فهو بذلك ليس الأول. بل أن هناك علة ما سبقت وجوده هذه العلة أو هذا السبب أدى لوجوده. إننا بالحديث عن كائن أول أو علة أولى وراء الوجود فإننا نفترض بطبيعة الحال وجود خالق ليس له مصدر بل مكتمل بذاته خارج الزمان والمكان، أو الزمكان كحدث فيزيائي، بحيث يكون الزمان نفسه جزء من شميلة أكبر لا بداية ولا نهاية لها: الدهر. هل يُمكن أن يكون هناك خالق ما أو علة ما وراء الوجود بتلك الصفات!

---: "طيب ما أنتي عارفة إنه ميمكنش أهوه، بتتكلمي وتردي على نفسك يا أستاذة علا!"

---: "سيبني أكمل كلامي يا أستاذ كمال. إن القول الذي يقضي بأن لكل فعل فاعل وأن الوجود بدوره فعل وهناك فاعلٌ له لابد، تدفعنا منطقيًا للافتراض بأن هذا الفاعل ليس مصدره شيئًا خارجًا عنه. ولو أن هناك مصدر سيكون هذا المصدر هو الكائن الأول أو العلة الأولى. الوجود كفعل له فاعل وهذا الفاعل ليس من قبله شيء بل هو

الأول لأن لو كان هناك شيئًا قبله لا يكون هو المسبب الأول / المعلل / الفاعل الأول.

تنهد كمال كمن يبلع الكلام رغمًا عنه. وأطفأ سيجارته مبتسمًا ابتسامة ساخرة وهو يقول: "بصراحة أنا عندي تحفظات كتير على كلامك. وعموما هفرض معاكي إن في سبب أو علة أولى وراء الوجود وإنه لم يأتي من عدم. وهذا المُعِل الأول لم يسبق عليه شيء بل هو الأول. ما الذي يجعلنا نفترض أنه كامل في كل شيء. أي إنه الأعدل أو الأجمل أو الأعلم، ماذا لو أن هذا المُعل يُفضل العنف والدماء. فكونه الأول الذي لم يسبق عليه شيء لا يجعله الأمثل في كافة الصفات.

---: "هل يُمكن أن يكون هناك إله يعتريه النقص أو الخلل أو تتقاذفه الأهواء؟" قطعًا لا. فهذا الإله هو المعل الأول لأنه كامل بذاته لا يحتاج شيئًا خارجًا عنه ليكون تام الكامل أو ليشبع رغبة ولو كان يحتاج لأي شيء فإن وجوده يقتضي اجتماع الأشياء التي بها يكون تامًا أو كاملا. فهو هنا ليس المُعل الأول بل هو "حادث" ككافة المخلوقات. يتكون بفعل عدة عناصر، وغياب أي عنصر منهم يسبب خلل أو احتياج. أي إن تلك العناصر سابقة على وجوده وعندما اجتمعت صار هو ما هو عليه. إنه بذلك يكون نتيجة أو حادثة وليس السبب الأول وراء هذا الكون. إن كونه المُعل الأول أو الخالق الذي ليس قبله أو بعده

شيء يقضي حتماً بل أدنى مواربة تمامه وكماله عن كل نقص أو خلل أو عيب أو شهوة أو كلل واحتياج. فهو كامل لأن نقصه يعني إنه ليس الأول. هو لا يحتاج للعنف أو الدماء ولا يفضل أو يحب كل هذا الهراء الجاري.

---: إنكِ تفترضين أن كونه الأول يعني تمام الكمال"، قال عابدين، "فهو ليس في حاجة لأي شيء لأن مجرد احتياجه يجعله ليس الأول الخالق. فهل تفسرين لي لماذا خلق الكون إذن وخلقنا نحن لعبادته كما يدعي الإسلام ومعظم الأديان. إن القرآن نفسه يقول إنه خلقنا لنعبده.

---: صحيح، إن معظم الأديان سواء الإبراهيمية أو غير ذلك تعتبر الحياة مرحلة انتقالية لعالم آخر وأننا هنا لنعبد خالق هذا الكون؛ لكن هل معنى إنه خلقنا إنه يحتاج لنا! هل في قوله "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون" إقرار منه بحاجته لأن يُعبد؟ ماذا لو كان هذا الكائن الأول قد خلق الكون بكل ما فيه بحكم جوهره كأول قوي يستطيع أن يخلق. أظن أن الأكثر منطقية هو أنه خلق الكون وكافة الموجودات بحكم كماله التام وليس لحاجته لمخلوقات تعبده. الكامل في كل شيء هو الأقوى والكون بما فيه هو واحد من تجليات تلك القوة القصوى. هذه تجليات جوهره. ولا يمكن أن يكون هذا الخلق بغرض اكتساب كرامة من وراء عبادة الناس له، لأن مجرد اكتساب الكرامة ينفي عنه

كماله بذاته وبجوهره. فهو عندما خلق لم يكن يحتاج من يعبده. وهذا يفسر عظمة الكون. فلو كان الخلق اقتصر فقط على البشر لأنهم يعبدوه وهو يحتاج عبادتهم فلماذا خلق هذا الكون الفسيح بكل ما فيه من مجرات لا حصر لها! ألا يدل ذلك على أن الخلق هو عملية تتجلى فيها قدرات وقوى هذا الخالق اللامتناهية. وأننا جزء شديد الصغر من عملية الخلق العملاقة. لو كان خالق الكون يحتاج كائنات تعبده فخلقهم ما كنا لنرى هذا الكون الفضفاض الفسيح الذي لا يمثل فيه كوكب الأرض إلا كما تُمثل النقطة للبحر. إن رحابة الكون بكل ما فيه من عوالم هي مظهر من مظاهر قوة الربّ العظيمة. هو يخلق لأنه خالق قوي متين وليس لأنه يحتاج للعبادة وإلا لماذا خلق عوالم لا بشر فيها على الإطلاق!

---: "وما الذي يمنع هذا الإله من التجلي لنا عيانًا لنوقره ونخافه. أن ظهوره لنا سيوقف الكثير من الحروب ويحسن الكثير من الأوضاع. لماذا لا يظهر لنا حقًا ويقول لنا ها أنا ذا، توقفوا عن كل ذنب وإلا أنزلت عقابي بكم."

---: "الأمر ليس بهذه البساطة يا أستاذ كمال. الخالق لا يمكن أن يتشكّل في هيئة مادية تبصرها العين. مستحيل أن يظهر في هيئة أرضية سواء في شكل جسد أو تمثال أو حتى صورة أيقونية . كما قلت لك سابقًا إن كان له أشكال مختلفة أو هيئات متحولة فإنه قائم بفعل

العناصر المكونة له ككل. ولو غاب أي جزء من أجزاءه أو العناصر المكونة له سيختل كيانه. إن تمام كماله كخالق يفرض بطبيعة الحال أنه لا يحتويه جسد ولا تمثال ولا صورة ولا أيقونة. إن احتجابه عنا لا ينم عن غياب أو موت كما رأى فريدريك نتشه. بل أن عدم تمثُّله يُثبت كماله وعلوه عن كل ما نلمسه بشكل مادي. إنه لا يتبدى لنا في هيئة مادية لأنه لو تبدى لنا فهو بذلك ليس الخالق أو المُعل الأول وراء هذا الكون. هو لا يتشكل في أي هيئة، كما إنه ثابت لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل. وجب عليه أن يخلق بحكم جوهره ولم يخلقنا احتياجا لنا.

---: "حتى لو سلمنا بصحة ما تقولين - ما الذي يجعل الإسلام هو الدين الصحيح. قد يكون الخالق تام ومحتجب و.. و.. وكل ما قلتيه، لكن البشر يا أستاذة علا ليسوا كذلك ما الذي يجعلنا نعتقد في صدق مُحمد وصحة الإسلام."

---: بحكم التسلسل المنطقي للأفكار، لابد أن هذا الكائن أرسل من يعرفنا عليه: ككائن أول واحد لا مثيل له ولا تعريف ولا هيئة ملموسة وقد خلقنا لا عن احتياج لنا بل بحكم جوهره كخالق. لابد أن هناك رسول ما ودين ما يدل عليه. فما هو الدين الذي يقول أن هناك خالق واحد للكون لا شكل مادي له ولا صورة. وإنه هو الأول ولا يتغير ولا يتحول وأنه خلقنا لنعبده لكنه غنيًا عن العبادة!

هل يوجد غير الإسلام؟ وإذا كان الخالق كامل كما اتفقنا فأنه بالتالي لا يكذب. وطالما وعد فوعده حق لا ريب فيه. فإذا كان أرسل كتابا ما يشرح فيه ما حدث وما سيحدث ويعد بالأفضل. فالأمر كما قال. لأنه لو كان محتاجا للكذب فهو لا يقوم بذاته ولا يكون هو الخالق / الكائن الأول. تلك دائرة مغلقة منطقية لا شك فيها. ومع ذلك يا أستاذ كمال، مهما بدت الأفكار منطقية ومتناسقة فهي غالبًا لن تُغيّر من تفكيرك في الدين أو الخالق. الإيمان ليس حِسبة رياضية بحتة لا يؤمن الناس حتى تثبت صحتها. هناك جانب من الإيمان أشبه بهدية؛ تَلقّي الهدية، يقتضي صدق الطلب. أن يكون الإنسان راغبًا بصدق في معرفة الحقيقة. كثيرون يميلون للتصديق بعدم وجود خالق لأن هذا سيُعفيهم من مسؤوليات الإيمان المتعددة. حتى أنهم يبحثون عن النظريات التي تؤيد أهوائهم المقررة سلفًا لا عن الحقيقة.

نظر عابدين نحوها وسكت برهة ثم قال باستياء: "للأسف يا آنسة علا أنتِ كبقية المتشدقين بالإيمان. إنكم تطلقون عباراتكم الرنانة عن وجود خالق بدليل كذا وكذا وتتناسون أن هناك حجج منطقية للطرف الآخر أيضًا مدعومة بحقائق علمية معترف بها وثابتة منذ سنين وليس بمجرد عبارات فلسفية مهما بدت متناسقة لا تستطيع دحض النظريات العلمية الملموسة والثابتة على أرض الواقع. إنك تعتبرين أن الوصول

لحالة الإيمان اليقيني هدية من الخالق للصادقين؛ لكنك لم تتطرقي لذكر أن على المرء أن يلغي عقله وينكر نظريات مثل التطور وخلافه ليصل لمرتبة من الجهل تُسميها أنتِ "الصادقين". هناك مُنكرون لوجود إله لأنهم مؤمنين بذلك مثل إيمانك بوجوده. وإيمانهم هذا قائم على حجج وأدلة مثلما يقوم إيمانك. هل المطلوب منهم تجاهل حقائق العلم عن نشوء الإنسان وتطوره؟ كيف تفسرين وجود تشابه جيني بيننا والقردة العليا أو الشمبانزي؟ إن الميول الجنسي مسألة محكومة سلفًا وفقًا لجينات معينة ومع ذلك توعد خالقك للمثلين بأشد العذاب. أيعقل أن يكون هناك خالق تام الكمال يخلق الناس مدفوعين جينيًا نحو نفس الجنس المماثل لهم ثم بكامل حكمته وعدله يعذبهم لميولهم الجنسي! ألا ترين أن القاعدة التي انطلقتِ منها بأن لكل فعل فاعل وأن لابد هناك خالق أول مُعل لهذا الكون مهما بدت منطقية تفقد بريقها أمام عشرات الأحكام والشرائع غير المنطقية الأخرى."

---: "هناك تفاسير لتلك الإشكاليات يا أستاذ كمال."

---: "لا تقاطعينِ أرجوكِ. احترمِ آداب الحوار التي تتحدثين عنها. أي خالق هذا الذي يتوعد الناس بجحيم لا قِبل لهم به يقبعون فيه إلى الأبد جزاء ذنوب أو معاصي ارتكبت لفترة زمنية محدودة في حياتهم. أهذا هو الإله العادل الرحيم؟! بما تفسرين كل هذا الهراء؟

---: "أنا لستُ أهل لتفسير لماذا شرع الخالق كذا وحرم كذا. هذه مسائل عقائدية شديدة التعقيد يجيب عليها المتخصصون فيها. كما أنني لست أهل للإجابة على ما فرضته بشأن تطور البشر من القرود بحكم التشابه الجيني لأن هذه مسألة علمية أخرى لها علماء وباحثون هم الأولى بالإجابة عن مدى صحتها. أنت سألتني لماذا تغيرت قناعاتي الدينية وشرحت لك كيف مضت الأفكار في التسلسل معي. أنا لا أطيح في الخلق تهديدًا ووعيدًا بأن يؤمنوا بما أراه صوابًا. والقضايا السجالية بين الدين والعلم لن تنتهي أبدًا. ومع ذلك سأخبرك برأي فيما سألت عنه لكن يظل هذا ما أظنه وقد لا يكون صحيحًا. إنك تفترض أننا نهين عقولنا لو أنكرنا نظريات مثل التطور أو دور الجينات في تحديد الميول الجنسي أو أن ذنب مقترن بفترة زمنية محدودة يكون عقابه عذاب سرمدي لا محدود. سأزيدك من الشعر بيتًا في مسألة التطور. نشرت مجلة ناتشر نيروساينس بحثًا علميًا رائعًا منذ أسابيع معدودة عن حجم التشابه بيننا وبين القردة العليا أو الشمبانزي. إننا نتشابه معهم لدرجة أبعد مما كنا نظن. حتى أن علماء بريطانيون اكتشفوا أن القردة لديهم نفس المراكز لنطق واستقبال اللغة تمامًا مثل الإنسان لكن في الفص الأيسر من الدماغ. وأن الإنسان والقرد كلاهما ورث هذا التركيب المتشابهة من سلف أو جد مشترك منذ ٢٥ مليون عام تقريبًا، وليس من

٥ ملايين عام كما كان يُعتقد.

---: "كويس إنك استشهدتي بالعلم، وفرتي عليا.."

---: "لكن تظل هناك حلقة مفقودة. لماذا انقسم أحفاد هذا السلف لنوعين القرد والإنسان العاقل؟ أن داروين نفسه لم يقل أبدًا أن الإنسان تطور من قرد. بل أكد أن الإنسان والقرد لهم نفس الجد. إنهم أبناء عمومة. ولا أظن أن ما في الدين ما يتعارض مع هذا الافتراض. القرآن نفسه يروي قصص أقوام بائدة تم سخطهم لقرود وخنازير وغير ذلك. فإذا كانت هناك نظريات علمية تؤكد أن الإنسان العاقل وبعض الحيوانات متشابهين إلى حد بعيد وكأنهم أبناء عم فما الذي يتعارض مع الدين في هذا الصدد. التطور عملية طبيعية تحدث منذ ملايين السنين وستظل تحدث في المستقبل. هذه حقيقة علمية ثابتة وصدق عليها مئات العلماء وآلاف الأبحاث والقرائن والدلائل. وأظن إنها لا تتعارض مع الدين في شيء. بل أن النشوء والارتقاء كما قدمه داروين يتفق مع النصوص الدينية أكثر مما يختلف. ما لا أفهمه حقًا يا أستاذ كمال هو إصرار الكثير من المؤمنين والمنكرين كليهما على الفصل التام. إما هذا أو ذاك. ماذا لو أن هذا وذاك لا يتعارضان مع بعضهما البعض أصلا.

قهقه عابدين آنذاك، وانفرج فاه عن أسنانه بالكامل وقال: "أرجوكِ يا آنسة علا. لا طاقة لي صدقًا بهذا الهراء. الدين الذي يقول أن الإنسان

أصله آدم الذي نزل من الجنة بسبب تفاحة مع امرأته لا يتفق مع النشوء الذي يفترض أن كافة الكائنات الحية أصلها خلية من طين الأرض.

---: "القرآن أيضًا يقول أن الإنسان خُلق من طين يا أستاذ كمال. أين المشكلة إذن! ما أثبته داروين وعلماء لا حصر لهم من بعده، هو أنه في قديم الزمان تحول بعض أجدادنا لقرود ولم يُكتشف سر هذا الانحراف حتى اليوم. داروين نفسه كان مُقرًا بوجود حلقة مفقودة. وعلى حد علمي أيضًا إن ما أتى عن مسئولية الجينات عن الميول الجنسي ليس صحيحًا بالطريقة التي أشرت إليها بل أن هناك أبحاث حديثة أثبتت إنه لا يوجد جين معين هو المسئول عن الشذوذ الجنسي كما كان يُعتقد في الماضي. المسألة كلها مسألة تفضيلات. هناك أشخاصُ يفضلون نفس الجنس وآخرون يفضلون جنس مغاير لهم. وهذا التفضيل في الحالتين ليس احتياجًا حيويًا مثل التنفس أو الطعام أو الشراب. وعلى كلٍ، دعنا نفرض يا أستاذ كمال أنك محق بأن الإنسان سواء كان يفضلُ نفس الجنس أو جنس مغاير له، يجب ألا تُكبح رغباته الجنسية بل يجب تلبيتها واحترامها. ولنفترض أيضًا أن الإسلام بل وكافة الديانات الإبراهيمية تنطوي على ظلم بيّن للشواذ جنسيًا. وأن اعتراف تلك الأديان بنمط معين من العلاقات الجنسية يُوقع الظلم على ملايين البشر الذين يميلون لنفس جنسهم. ألا تكون الأديان الإبراهيمية بذلك قد أخطأت في

تحريم العلاقات الأسرية. فهي في النهاية تحدث بين أجناس مغايرة! ألا ترى أن نموذج الأديان السماوية، من حيث القواعد المشترطة على العلاقات الجنسية والسماح بها وفق إطار معين وتحريمها على ذوي القربى، يتخطى مسألة الشذوذ والمغايرة؟ فالتحريم في الأديان ليس مقتصرًا على الميالين لنفس جنسهم، بل على المغايرين أيضًا لو كانوا من أفراد الأسرة الواحدة أو أقارب الدرجة الأولى وغير ذلك. التحريم والتحليل في تلك الأديان ليس قائم على أساس جيني أصلا بل قائم على أساس تنظيمي. ولو أن الخالق ظلم الشواذ لأنهم يرغبون في نفس جنسهم فهل يكون ظلم الآباء والأمهات وأقارب الدرجة الأولى بتحريم سفاح ذوي القربى لأنهم للأسف مساكين يميلون لجنس مغاير بشكل جيني ولا يستطيعون كبح رغباتهم الجنسية!

تجهم وجه عابدين آنذاك وانفعل وهو يقول: "هل تساوين بين شخصين من نفس الجنس يرغبان في بعضهما البعض بتراضٍ تام والاغتصاب الأسري؟

---: "أنا لا أساوي بين المثلية الجنسية والاغتصاب الأسري. أنا أساوي بين المثلية والعلاقات الجنسية الأسرية إذا كانت تتم بالتراضي. هل يجب علينا أن نسمح بزواج شابة بالغة من أبيها أو أخوها أو شاب من أمه أو أخته طالما أن الاثنين مغرمين ببعضهما البعض وطالما أن العلاقة

الجنسية فيما بينهما تتم بالتراضي؟ لأن إذا كنّا بصدد كسر القواعد التي فرضتها الأديان كشرط للعلاقات الحميمية والزواج والتكاثر، فإننا لن نجد الأمر مقتصرًا على الشواذ فقط."

---: "إنكِ تلوثين أفكار من حولك بتحريضهم على الظن أن المثلية الجنسية مثلها مثل سفاح القربى. حتى إن تبريرك الظلم الذي يقع على المثلين لا يخرج إلا من نفس مريضة لا ترى في الحب الجارف إلا وسيلة مزعومة لتبرير سفاح القربى. وبما ستبررين عذاب هذا الخالق للبشر للأبد مقابل أفعال خاطئة حتى لو كانت شنيعة لكن تم ارتكابها في فترات زمنية محدودة؟ أوه، انتظري من فضلك، بالطبع إلهك الكامل العادل محق فيما سيفعله مهما بدا ما يفعله منافيًا للعقل والمنطق.

---: "أستاذ كمال، أنت من طلبت مني أن أشرح كيف ولماذا تغيرت قناعاتي الدينية. أنا لم أدخل هذه الغرفة لأدعوك إلى عبادة دين معين. كنت على وشك الرحيل وأنت من أصر على فتح هذا النقاش. أنا غير مرغمة على تحمل نبرتك المدوية وصوتك الذي يخترق أذني. أتريد أن تعرف ما رأيي في توعد الخالق للبشر بعذاب لا قِبل لهم به حال خالفوا ما أمروا به؟ نعم، أرى إن هذا تمام العدل. سأزيدك من الشعر بيت، هذا الجحيم المستعر يناسبنا تمامًا. لقد خلق الإله هذا الكون وأمر الناس بألا يفسدوا أو يظلموا وغير ذلك من الـ...

---: كفى تبريرات ....

---: لا تقاطعني! طفح الكيل فعلا - إن الله توعد هؤلاء البشر بأنهم إذا فعلوا كذا وكذا سيخسرون الجنة لكنهم لم يأبهوا لذلك. فتوعدهم بأنهم سيخسرون أرزاقهم وقد تفسد معيشتهم إن استمروا في فعل كذا وكذا، لكنهم أيضًا لم يأبهوا. حتى عندما توعدهم بعذاب صارخ ونيران صاخدة لم يأبهوا. لقد هددهم بشتى صنوف العذاب وتوعدهم بكافة وسائل العقاب. ثم..! لا شيء. وكأنهم لم يسمعوا قط بأن هناك سعيرٌ ينتظرهم جراء ما فعلوه. أنت نفسك يا أستاذ كمال، إنك تشتكي من الظلم المستشري في العالم والجنون والفوضى الذين يسيطران على كافة الأوضاع، مع ذلك، تشتكي أيضًا إن الأديان الإبراهيمية توعدت المذنبين بعذاب النار! إن النار المستعرة تلك ليست عقابًا على ذنب اُقترِف في فترة زمنية محدودة. هذا العذاب الغير محدود إنما هو لقاء استهتار غير محدود بالنار نفسها. إن الظالم لم يردعه التهديد بعذاب أبدي لا حدود له لأن رغبته وأهوائه كانت أكبر وأعتى من هذا العذاب. لماذا يضع إنسانٌ عاقل يده في قدر من الماء المغلي حتى لو كان القدر يحتوي على جوهره في قاعه؟ لن يمد يده إلا في حالة واحدة فقط؛ أن تكون رغبته في الحصول على الجوهرة أكبر بكثير من خوفه من الماء المغلي الذي سيحرق يده. هذا النار يا أستاذ كمال مستعرة بقدر شرورنا

نحن البشر وهي عميقة ومتدرجة تمامًا كدرجات الخطأ والشر.

---: كفى هراء أرجوكِ. إنك تبررين وجود هذا الخالق الذي اخترعته ثم تبررين أفعاله معتمدة على محض استرسال وسفسطة ربما كان الغرض منها تعزية نفسك أمام فقدان هذا الوجود لأي معنى من وراءه. إنكِ....

---: إنني أريد أن أقول شيئًا أخيرًا يا أستاذ كمال. لقد نقل غسان كنفاني عن أحد مسؤولي الكومسمول أنه قال أن الشيوعيين العرب يتمتعون بسطحية لا حد لها وأنهم أسوأ شيوعي العالم على الإطلاق. يمكنك التأكد بالبحث في أرشيف مقالاته المنشورة. لقد كان كلاهما على حق. إنني أعجب من نبرتك الاستعلائية ونقدك الذي يفند أفعال الخالق لماذا كذا ولماذا كذا وأنت تجعجع عن الظلم الذي يسود العالم، لكنك أنت ذاتك من يتشدق ليل نهار بما فعلته خادمتك الأفريقية. إنها تحسن فعل هذا ولا تحسن فعل ذاك لتلفت نظر الناس لقدراتك المادية. أي شيوعي هذا الذي يتفاخر بوجود خادمة أفريقية في بيته ثم يأتي ليعيب على زميلة لا تعرفه ولا يعرفها تحولها من اللاأدرية للإيمان بوجود خالق. أنت وأمثالك مِمَن ملأوا الدنيا صراخ بحقوق المرأة وثورة البروليتاريا وغيرها من الكليشيهات الرنانة عادة ما تكونون أنتم أنفسكم أكثر من يسيء لها ويمتهنها كمرأة وكفرد عامل في هذه

البروليتارية.

لم ينتهي الحوار عند هذا الحد في ذاك اليوم. بل امتد التراشق بالعبارات والألفاظ حتى وصلا كمال وعلا كلاهما إلى تبادل الآراء حول صحة كل منهم العقلية. وكما ينتهي الحوار عادة في مثل تلك الجلسات. انتهت الجلسة بتدخل رئيس التحرير نفسه مهددًا الجميع إن أي نقاشات في غير إطار العمل ممنوعة وأي تراشق بالألفاظ سينتهي بالفصل. وعادت علا في ذلك اليوم لطهم وهي تدرك عن نفسها حقيقة أحزنتها للغاية. إن الصورة الذاتية التي يتخيلها المرء عن نفسه مهما بدأت يقينية أمام تلك الذات لا تلبث أن تُفصح عن هشاشتها وعوارها في أبسط المواقف التي تمتحنها. كان من الممكن أن ينتهي النقاش قبل التراشق بالألفاظ وبشكل أكثر تحضرًا لكنه ما فتأ إلا أن ازداد سوقية وبات كل طرف من الطرفين يبحث عما يمكن أن يؤذي به الطرف الآخر لينفث عن غضبه. إن المرء ليظن أن نفسه طيعة وقابلة للترويض إلى أن تتعرى تلك النفس وتكشف عن مخالبها فيرى منها قدر من اللاإنسانية يلوم وجوده في الآخرين.

وما زاد الطين بلة أن علا أسقطت تلك الحقيقة على كافة ما كانت تظنه راسخًا فيها بحكم التفكير الزائد والوسوسة. ربما لم تكن من البداية بالأخلاق أو المبادئ التي تدعيها. لقد اندفعت تتفحص كافة

الصور التي تقدمها لها ذاتها باعتبارها تعريفًا أو جوهرًا يُشكّل هويتها. وما لبثت أن أدركت أن ما كانت تعجز عن معرفته معرفة كلية كل تلك السنين هو حقيقة نفسها وذاتها. فطنت علا أن النفس تعمل بطرق ملغزة ومحيرة ولا يمكن الوثوق يقينًا في صدق هويتها إلا بعد اختبارات عدة. فرصة الإنسان في أن يكون إنسانًا متحضرًا هي نفسها فرصته ليُنفث عن غضبه. وكان لهذا الشعور والإدراك أثرًا أكبر مما تخيلت حيث وجدت نفسها فاقدة الثقة في كافة أشكال الحماسة الذاتية الصادرة عن نفسها أو الآخرين أمام ادعاء أي قيم أخلاقية. كم يفشل الإنسان في التمييز بين ما وقر في نفسه بالفعل وصار جزءًا من جبلته وسجيته؛ وما يندفع في التهليل به كنوع من أنواع إرضاء الذات بشكل نرجسي محض بأن لها ما يُميزها عن الآخرين من أفكار ومبادئ. هل كانت تمارس كما الآخرين الاشمئزاز من العالم لتظهر إنها على النقيض من هذا تمامًا؟ هل تكون ممارسة الاشمئزاز من العالم سبيلا فرديًا للوصول إلى الذات؟ بدت كل تلك المشاعر والأسئلة في النهاية تحصيل حاصل.

فقدت علا الرغبة في الاستمرار منذ زمنٍ بعيد قبل أن يتوفى أبوها حتى، فقدتها في اليوم الذي أخبرتها فيه شادية صراحة أنها سألت الله أن يتوفاها رحمة بها. لأن هيئتها وهي رضيعة كانت تنم أنها لن تكون جميلة وأن لا أحد قد يتزوجها. كانت علا تعلم قدر الخلل والهذر فيما

تقوله والدتها. كانت على النقيض من ذلك مقتنعة إنها تتمتع بقسطٍ وافر من الجمال، إلا أن ما وقر في قلبها من رغبة في الرحيل لم يكن مرده العلاقة السامة التي جمعتها بأمها البيولوجية. لم يك مرده كذلك يأسٌ مطلق من أن الحياة قد تحملها في طياتها الجمال كما حملت القبح. فقُبيل قرار الرحيل كانت بالفعل تتمتع بوظيفة مرموقة وراتب ثابت وقبول اجتماعي، وحتى معجبون يطلبون الوصل، لكنها كانت فقدت أهم شيء يدفع الإنسان للحياة. فقدت الرغبة. لم تعد ترغب في شيء، سيئًا كان أو جيدًا. رحلت لأن الشيء الوحيد الذي كانت لا تزال ترغب فيه هو الرحيل.

كان يومًا ربيعيًا عاديًا. استيقظت في السابعة من صباح ذاك اليوم وهي مثقلة ومرهقة بعد ليلة طويلة من الكوابيس المعتادة - رأت أن حربًا ما اندلعت في الجامع الأزهر مات فيها كثيرون والناجون منها لم يتخط عددهم أصابع اليد الواحدة -

تناولت بعد أن استيقظت قلم وورقة وكتب ...

"أشعر بحزن عميق. ونالت المشقة مني ما نالت. كل شيء من حولي أصبح حملا ثقيلا جاثما على صدري. كل شيء مُظلم ولا معنى له. صار محالا علي أن أفهم نفسي بالذات مهما فهمت من أمور. أتمنى لو تقوم الساعة، ساعتي أنا، وأن ينتهي كل هذا الطريق. أريد أن أخرج من

تلك الغرفة المظلمة التي تُسمى العالم. لربما وجدت بعض النور في كونٍ آخر ودار أخرى آخرة. قد أنسى كل ما ألم بي من أسى وعذاب هنا. وينطوي فصلٌ من الدهر لا أفهم لماذا عشته. أقدري أن يحترق قلبي إلى هذا الحد؟ أكان من كل ذلك بُدّ؟! تلك المنامات تجرني نحو عالم لا وجود له في أرض الواقع؛ لكنه يظهر في رأسي من حيث لا أدري. وما إن يُفتح الباب حتى أنزلق فيه. ربما كان عليّ الرحيل منذ وقتٍ طويلٍ - نعم - كان عليّ الرحيل قبل أن يصبح قلبي مشعًا بظلامه! كان علي الرحيل حينما كان فقط غارقًا في العتمة."

كتبت هذا ومضت تجمع ما قد تحتاجه قبل أن تغرق في بحرها الأخير. رتبت في رأسها حجة للسفر. "أنها مضطرة للذهاب للإسكندرية لمدة أسبوع من أجل سلسلة مقالات عن تاريخ الإسكندرية ينتظرها رئيس التحرير." ذرفت الدموع رغماً عنها وهي تتخيل وقع الخبر على والدتها أو استلام الجثة، ففي النهاية، وبالرغم من كل شيء، لم تكن شادية تكره ابنتها. كانت تبكي عليها إذا استبدت بها نوبات الربو - وتدعي لها همسًا في الصلاة بالزوج الصالح - حتى أنها كانت تشتري لها كثيرًا مستلزمات زواجها المستقبلي. ومع ذلك، يأتي الحب كما النفس التي تعطيه. إذا كانت طيبة كان طيبًا وإذا كانت غير سوية كان سامًا وقاتلا.

اتصلت بخديجة بعد ذلك وطلبت منها الاعتناء بوالدتها وأن تمر بها

يوميًا إن استطاعت لأنها ستغيب لفترة. خرجت من غرفتها. أمعنت النظر في تفاصيل البيت. تركت بضع آلاف من الجنيهات على طاولة الطعام. ووالدتها تسألها: إلى أين..؟